رقصة قين

الجزء الثاني

هلاك السادة

الكتاب كاملا

تأليف

يسلم سيدي احميد

جميع الحقوق محفوظة © [يسلم سيدي احميد] [٢٠٢٥]

لا يجوز نسخ أو إعادة إنتاج أي جزء من هذا الكتاب، أو تخزينه في نظام استرجاع، أو نقله بأي شكل من الأشكال، سواء إلكترونيًا أو ميكانيكيًا أو بالتصوير أو التسجيل أو بأي وسيلة أخرى، دون إذن خطي مسبق من المؤلف.

إهداء

إلى زهرة، صديقتي التي رأت النور في هذا العمل حتى قبل أن يُولد، وآمنت به، واحتضنته بمحبة خالصة... لكِ كل الامتنان.

إلى فريق النقاد الذين لم يكتفوا بالقراءة، بل ساهموا في تشكيل النص، تنقيحه، وتهذيبه، حتى بدا كما تمنّيت وأكثر.

وإلى كل من منحني دعمًا، مهما كان بسيطًا... أنتم الجذور التي استند إليها هذا العمل.

رقصة قين

أسرار الفجر

مع بزوغ خيوط الفجر الأولى، بدا وادي لحنوك أشبه بلوحة حزينة تتلون بأشعة شمس خافتة تتسلل بين بقايا العاصفة الرملية. كان المكان يعمه صمت ثقيل، كأن الوادي ذاته يحدّق بصمت في جراحه، بعد ليلة مزقتها أصداء إطلاق النار.

الشيخ الشيباني، بجسده المنحني بفعل الزمن، كان يجول بين الظلال بعينيه اللتين تحملان مزيجاً من القلق والتعب. كل خطوة يخطوها على رمال الوادي كانت تروي قصة رجل يطارد النمور. لا بل كان مطاردا من خوفه الأكبر: أن يكون قد فقد سالم، ابنه الذي خذِل منه طوال حياته.

وقف الشيخ عند شجرة عجوز، استند بجذعها وكأنها سندٌ وحيد في هذا الامتحان العسير. لحظات مرّت وهو يسترق النظر نحو الأفق، يبحث فيه عن بارقة أمل أو حتى عن أثرٍ يدلّه على ولده.

لم يمضِ وقت طويل حتى سمع صوت وقع أقدام جمل ما. ظهر محمد، ابنه الأكبر، قادماً بخطوات تملؤها العجلة، وملامحه تعكس صراعاً داخلياً بين الأمل والخوف. قفز محمد برشاقة، واقترب من والده قائلاً:

"أبي... بحثت في كل مكان طوال الليل. لا... لا أثر لسالم."

ارتفع وجه الشيخ نحو الأفق الذي تلونه الشمس بلونها البرتقالي المائل إلى الاحمرار. تنهد بصوت يحمل ثقل السنين وهمس:

"أخشى أن العاصفة أخذته... لكنني لن أعود بدونه، علينا أن نواصل..."

لم يستطع محمد كبح فضوله ودهشته، فسأل بصوت مرتفع:

"لماذا الآن يا أبي؟ لماذا كل هذا الاهتمام المفاجئ بسالم؟ لم تكن هكذا من قبل."

اضطربت ملامح الشيخ الشيباني، وعينيه ثُبتتا على الأفق البعيد كأنما يبحث فيه عن مخرج من ثقل الحقيقة التي يحملها. عباءته البيضاء تلاعبها نسائم الصباح بهدوء متناقض مع الاضطراب في داخله. قال بصوت مكسور، بالكاد يُسمع:

"هناك شيء أخفيته عنك طويلا، يا محمد..."

أدار محمد رأسه بسرعة نحو والده، ملامح القلق والفضول يتصاعد في وجهه:

"ما الأمر يا أبي؟"

ابتلع الشيباني ريقه بصعوبة، وحدق في عيني ابنه بحزن عميق:

" سالم ليس مجرد فتى ضائع. إنه أخوك."

ارتجف قلب محمد عند سماع الكلمات، وتغيرت ملامحه بين الصدمة والتردد:

"أخ... أخي؟ كيف؟ ما هذا الذي تقوله؟"

تنفس الشيخ بعمق، وكأن الهواء الذي يستنشقه يسمم قلبه بالحزن. اقترب من ولده واضعاً يده على كتفه. نظر في عينيه مباشرة وقال بنبرة تحمل حزناً وندماً:

"لم يكن الأمر سهلاً يا بني. أردنا حمايته... لكنني أخطأت، والآن سالم غاضب، مشوش... وقد يؤذي نفسه."

زاد التوتر في صوت محمد وهو يقول:

"لكن من كان يحميه معك؟ ومن هؤلاء الأعداء الذين تتحدث عنهم؟"

أطرق الشيخ برأسه للحظة، وكأن الذكريات تثقل عليه، ثم أجاب بصوت خافت:

"كان علينا حمايته من أشباح الماضي التي كانت تطارد والدته."

رفع محمد حاجبيه في استغراب:

"رحمة؟ تلك الخادمة الهادئة؟ كيف يكون لها أعداء؟"

عاد الشيخ ليرفع بصره نحو ولده وقال بنبرة تحمل القليل من النفاد صبر:

"الأمور أعقد مما تظن، يا محمد. الآن ليس وقت الأسئلة. علينا إنقاذ سالم قبل أن نفقده."

شعر محمد بعمق الحزن الذي يلمُ بوالده، فخفض رأسه قليلاً وقال بصوت مكسور:

"كما تريد، يا أبي."

انقطع الحديث للحظة، حل فيها صمت غريب، لكن سرعان ما قطعه صوت بدري الذي كان يقود جمله بسرعة نحوهم. وقف بدري أمامهم، ونزل بخطوات متسرعة، يلقي التحية وهو يقول:

"لم أجد أي أثر لسالم. فعاصفة الأمس محَت كل شيء."

نظر الشيباني نحو بدري، ونطق بصوت مشحونٍ بالخوف:

"لا يمكن أن يكون قد اختفى نهائياً. إنه هنا... في مكان قريب. لن أتوقف حتى أجده."

اقترب بدري ووضع يده على كتف الشيخ بحركة مليئة بالحكمة:

"يا صاحبي، عليك أن تكون واقعياً. لم نرتح منذ الأمس. يجب أن نعود للمخيم، ونستجمع قوانا. البحث يحتاج لصبر."

تدخل محمد قائلاً بنبرة مؤيدة:

"بدري معه حق، أبي. نحن نحتاج إلى الراحة."

هز بدري رأسه موافقاً وأضاف بابتسامة خفيفة:

"أنت قائدنا، يا شيباني. لكن حتى القادة يحتاجون إلى الراحة ليكملوا طريقهم."

صمت الشيباني للحظة، ينظر إلى وجهي بدري ومحمد، ثم أغمض عينيه بتعب وقال بصوت مثقل بالقرار:

"حسناً... فلنعد للمخيم لبعض الوقت."

امتطى الثلاثة مراكيبهم، متجهين نحو المخيم بخطى بطيئة. كان التناقض بين أمل العثور على سالم وخوف الفقدان الأبدي يخيم على أجواء الصباح.

***

في مخيم قبيلة أولاد شداد، زَجَت أشعة الصباح الذهبية بأنوارها لتُعيد الحياة إلى القلوب المثقلة بالحزن بعد ليلة من الأسى على فقدان الشاب الرقيق والمحبوب، سالم.

سادت الاستفهامات والتساؤلات حول مصيره المجهول، مما أثقل قلوب الأهالي بالأحزان. لم يكتمل فرح القبيلة بسبب الحوادث المؤلمة التي ألمت بهذا الشاب البريء، رغم أنه كان مجرد عبدٍ نكرة في نظر الكثيرين، إلا أن الشعور بالتعاطف والمواساة كان حاضراً بقوة من جميع أطياف المجتمع، مشكلاً هالة حزن مختلط بالرحمة يصاحبه تأمل في مقدار غدر الحياة وأزماتها.

على أطراف المخيم الشمالية، هناك حيث يتجمع الكمدانيون بكثافة، كانت خيمة الشيخ الشيباني موطناً للانتظار الطويل والأسى العميق. جلست السيدة زينب وضراتها، منى، عيشه، وخديجه، في صمت مرير مقابل مدخل الخيمة، وجوههن محمرة تعكس حزناً لا يوصف.

لم يغمض لهن جفن خلال ساعات الليل الماضية، الأفكار تدور حول سالم، ذلك الشاب الغابر، وهل ستعود البشارة بخبره أم سيظلون في هذا الانتظار المؤلم؟ الحزن يلف الخيمة بظلامه الثقيل، وكل واحدة منهن تعرف الحقيقة القاسية عن سالم، ابن زوجهن العزيز والذي فُقد في غمضة عين، كل منهن تحتضن قلقاً لا ينتهي وأملاً بالعودة المحتملة لسالم الفقيد.

دخل عبدو، ابن الشيباني الثاني، إلى داخل الخيمة بخطوات ثابتة، ووجه تحية محترمة لأمهاته، ثم أعلن ببهجة:

"وصل أبي قبل قليل، وسيكون هنا بعد لحظات."

ألقت زينب، والدة عبدو، نظرة مليئة بالتوتر والقلق، وتساءلت بصوت متعب:

"هل وجدَ سالم؟"

تردد عبدو قليلاً، ثم أجاب بصوت متواضع:

"لا، لم يجده على ما يبدو."

عبرت منى عن حزنها بزفرة تنبعث من الأعماق، وبدأت تدعو بخشوع:

"يا رب، احفظ سالم من كل مكروه."

نظر عبدو إلى وجوههن المتألمة، ولم يسعه إخفاء فضوله، فسأل بلطف:

"أرغب في معرفة سبب هذا الحزن الشديد على سالم، عليكن إخباري الآن؟"

قالت السيدة خديجة بصوت هادئ ومؤثر:

"سالم عزيز على قلوبنا جميعاً، ولذلك نشعر بالقلق والحزن عندما يتعرض لأي مصيبة."

ثم أضافت زينب بتأكيد:

"كلنا نحبه ونهتم بأمره، وبعض الأمور كالحزن لا يمكن السيطرة عليها."

نظرت إلى عبدو بعيون مليئة بالتوجيه، وقالت بحزم:

"توقف عن طرح الأسئلة، واذهب لاستقبال والدك."

رد عبدو بابتسامة هادئة، ووعد بالطاعة:

"حاضراً، يا أمي."

ثم خرج من الخيمة وهو يحمل في داخله الكثير من التساؤلات، ولكنه قرر أن يؤجلها لحينٍ آخر.

***

بثبات وثقة، سار الشيخ الشيباني على صهوة حصانه بين خيام القبيلة العظيمة، حيث تتجه أنظار الناس نحوه في صمت مليء بالفضول والتساؤلات. الجميع يسعى لمعرفة سر اختفاء سالم في تلك الظروف الغامضة.

بينما ينتقل الشيخ ببطء بين الخيام، يبدو وجهه الحكيم متجهاً إلى الأفق، وعيناه تحمل حملاً من الأسرار والأحزان المخفية خلف ستار الصمت. تتسارع نبضات قلوب الحاضرين، وكل واحد يتساءل عما يخفيه الشيخ وعن علاقته الغامضة بالشاب.

وسط هذا الجو المشحون بالتوتر والتساؤلات، ظل الشيخ الشيباني وحيداً في عالمه الخاص، وكأنه يحمل أسراراً لا يستطيع أحد فهمها.

وفيما كان يتقدم الشيخ بثبات، سمع محمد، الذي يسير خلفه، وهو يتساءل بحيرة:

"أبي، هل هناك ما يجب عليْ معرفته؟ أنت تتجه صوْب مخيم جلفون!"

رد الشيباني بهدوء متناهي:

"نعم، أنا كذلك."

ازداد استغراب محمد، ووجهه يعبر عن التساؤل المتزايد:

"لماذا؟ ما الذي تريده هناك؟"

رد الشيباني بصوت متعب، يحمل في طياته الكثير من الأسرار:

"ستعرف عندما نصل."

عبّر محمد عن تساؤلاته واضطرابه بصمت عميق، بينما واصلوا السير نحو مخيم الشيخ أحمد. كانت الشمس تطل عليهم بأشعتها الدافئة، تلمع على وجوههم بدفئ الصباح الجميل.

وفي تلك اللحظات، كان أبناء مخيم جلفون يترقبون تقدم الشيباني وابنه بين خيامهم، بأعين مليئة بالحيرة والتساؤلات، ترسم معالم القلق على وجوههم المتوترة. بينما وقف الشيخ أحمد، رجل الفخظ الحكيم، في انتظارهم أمام خيمته، متبسماً ببسمة مشرقة تعكس شعوره بالانتصار. وبين أصابعه يدور خاتمٌ من الفضة يحمل خاتماً قديماً متوارث، يُعتبر رمزاً لسلطته الموروثة بين أفراد فخظه.

وكما تتابع الأعين المتوترة حركة الشيباني وابنه، ينظر الشيخ أحمد إلى نظيره الشيباني باستمتاع وهو يراه مقيدا بسلاسل الحزن والانكسار.

نزل الشيباني بجوار أحمد، فتلقاه الأخير بتحية حارة واحتضان يتخلله حزن مفتعل.

"كيف حالك؟ هل لديك أي خبر عن ذلك الشاب الضائع؟"

سأل أحمد بفضول مختلط بالقلق.

رد الشيباني بصوت هادئ: "لا، لم أجده بعد، يا صديقي."

أجاب أحمد بحنين وأسى: "أتمنى أن يعود قريباً بإذن الله."

وبينما كان الشيباني يحاول إخفاء حزنه وراء عبارات الشكر، استقرت عيناه على الأرض محاولاً إخفاء مشاعره الحزينة، وفي ذات الوقت سأل أحمد بتعب:

"أتيت لمقابلة شخص هنا يا أحمد."

أجاب الآخر وهو يرفع حاجبيه بتساؤل:

"لك ذلك، أخبرني، من هو الشخص الذي تريد العثور عليه في مخيمي؟"

***

في أحد أطراف مخيم فخظ جلفون، كانت الطبيبة عيشه جالسة داخل خيمتها، مسترخية بين جدرانها القماشية، تذكر الله بعد أداء صلاتها. وبالقرب منها، كانت كريمة الصغيرة مستلقية، وجهها يستند إلى مخدة جلدية، لا تزال تتأرجح بين عالم اليقظة والنوم العميق. كانت أعينها متعبة من السهر والبكاء، فقد أرهقت من حزنٍ لا ينتهي على فقدان أخيها سالم، الذي بات يشغل أفكارها ويملأ أحلامها بالخوف.

لم يغمض جفن عيشه أيضاً، فقد كانت تشترك في الحزن على سالم، ضحيةً للألم والفقدان مثل الجميع في المخيم. لكن عيشه لم تستسلم لهذا الحزن المكبوت، بل كانت تهرب منه

عبر الدعاء والصلاة، تبحث عن الراحة والسكينة في عبادة الله، في محاولة لتخفيف ألم قلبها وتهدئة روعها.

لم يمضِ وقت طويل حتى وصلها صوت خادمتها المخلصة، فضيلة، تُخبرها بأن هناك شخصاً ينتظر مقابلتها. بكل ثقة وثبات، خرجت عيشه من خيمتها نحو الزائر، ثم وقفت متأملةً الشيخ الشيباني، الذي كان شامخاً كالجبل، لا يهزه هزُّ الأحداث. شعرت بمدى هيبته وقوته التي تنبعث منه كهالة تصدُّ عنه أي عاصفة قد تهب عليه.

وقف والدها أحمد عن يمينه، وابن الشيباني الكبير محمد عن يساره. بنبرة حزينة وقلب مثقل نطق الشيباني بتحيته للطبيبة:

"السلام عليكم ورحمة الله وبركاته."

ردَّت عيشه بتواضع وعينيها تنظر نحو الأرض:

"وعليكم السلام ورحمة الله تعالى وبركاته، أهلاً وسهلاً بك سيدي الشيباني."

تابع الشيباني بإحترام:

"كيف حالك يا ابنتي؟"

أجابت بصوت رقيق:

"أنا بخير، نحمد الله يا سيدي."

"الحمدلله"

قالها الشيباني بتقدير، ملاحظاً خلقها الرفيع.

عندها أعلن الشيخ أحمد:

"إبنتي عيشه، الشيخ أتى لزيارة الطفلة، ماكان اسمها؟، آه صحيح، كريمة."

عيشه شعرت بالفضول، وقالت:

"بالطبع، تفضل بالدخول، سأوقظها من أجلك سيدي."

أجاب الشيباني بود:

"لا شكراً، سننتظر هنا."

أومأت بالتفهم، وهي تلاحظ نظرات محمد لها. ثم إلتفتت متوجهة إلى داخل الخيمة.

بأناملها الرقيقة ولمستها اللطيفة، داعبت عيشه خدّ كريمة، وتعلو وجهها ابتسامة دافئة، وهي تناديها بصوت خفيف:

"صغيرتي كريمة، استيقظي، هناك شخص ينتظر لرؤيتك."

فتحت كريمة عينيها ببطء، ورأت وجه عيشه المبتسم عند رأسها بود. بصوت خافت، سألت كريمة:

"هل هو أخي سالم؟"

هزت عيشه رأسها بنفي وقالت:

"لا، لم يتم العثور عليه بعد."

انطلقت كريمة بحزن يتداخل مع كلمتاتها:

"إذا . من الذي أتى لزيارتي؟ يا سيدتي."

أجابت عيشه بلطف:

"إنه سيدك، الشيخ الشيباني."

توسعت حدُقات كريمة عند سماع هذا الاسم، وسألت بفضول:

"الشيخ جاء لزيارتي؟"

"نعم، تماماً، هيا، أسرعي، إنه بانتظارك"

أجابت عيشه وهي تبتسم.

خرجت كريمة من الخيمة، فامتزج ضوء الشمس بوجهها الحزين، وبخطواتٍ ضعيفة، تقدمت نحو الشيخ الشيباني، وهي تنظر باضطراب نحو الأرض. بينما كانت ذراعها المصابة ترتعد بشدة، وقفت أمام الشيخ الذي انحنى لها بلطف، تماماً كما كان يفعل أخوها سالم. ثم وضع يده برفق على كتفها الصغير وقال بلطف:

"كيف حالك يا صغيرتي كريمة، هل مازلت تشعرين بالألم؟"

رفعت كريمة رأسها ببطء، محاولةً إخفاء ارتباكها خلف ابتسامة باهتة، وقالت بصوت خافت:

"أنا بخير، بفضل الله... وبفضل يد السيدة عائشة."

لكن نبرتها لم تستطع إخفاء الخوف العالق في أعماقها. الشيخ الشيباني، الجالس على مقربة منها، أومأ برأسه مطمئناً وهو ينظر إليها بحنان أبوي نادراً ما أظهره.

"الحمد لله على سلامتك، يا ابنتي"

قالها بابتسامة خفيفة، قبل أن يصمت للحظة، وكأنه يستعد لسماع كلماتها التالية.

ترددت كريمة قليلاً قبل أن ترفع عينيها نحوه، وقد عادت تلك الشرارة الصغيرة من الأمل لتضيء نظرتها المتعبة. سألت بصوت مجهد:

"هل... هل وجدت سالم؟"

تغيرت ملامح الشيباني، وكأن سؤالها نكأ جرحاً غائراً في قلبه. تنهد بعمق، وقال بصوتٍ حازم لكنه مليء بالأسى:

"لا، لم نعثر عليه بعد... لكنني أعدك، يا بنيّتي، سأبذل روحي قبل أن أتوقف عن البحث. سأعثر عليه، مهما كان الثمن."

ارتعشت شفتا كريمة للحظة، لكنها أومأت بصمت، وكأنها تحاول السيطرة على دموعها. كانت كلمات الشيخ تمس قلبها، لكنها أيضاً زادت من ثقل الانتظار الذي يرهقها.

لاحظ الشيباني ذلك، فنهض من مكانه. نظر إلى الجمع من حوله: عائشة، أحمد، محمد، فضيلة، وغيرهم. كان الجميع يراقبون المشهد بصمت، وكأنهم يدركون أن لحظة حاسمة على وشك الحدوث.

وقف الشيباني بثبات، رافعاً رأسه بوقار، ثم وجه بصره إلى كريمة التي بدت وكأنها لا تفهم ما يحدث. تبادل الاثنان

نظرات طويلة، تحمل في طياتها الكثير من المعاني التي لا تُقال.

ثم قال بصوت هادئ، لكن كل كلمة منه حملت ثقل السنين والخبرة:

"اسمعوا، جميعكم."

التفت الجميع نحوه باهتمام، وكأن كلماته تحمل وعداً أو إعلاناً لا يُنسى.

تقدم الشيخ خطوة نحو كريمة، ثم أضاف بنبرة حليمة، وقاطعة:

"كريمة بنت محفوظ، بشهادة هؤلاء الحاضرين، ومنذ هذه اللحظة... أنت حرة طليقة."

توقف الزمن لوهلة. كانت كريمة تنظر إليه بدهشة، وكأنها لم تستوعب الكلمات. حدقت في عينيه، ثم في عيون الحضور من حولها، محاولة استيعاب ما سمعته للتو.

تردد صوت عائشة من الخلف، وهي تكتم دموعها:

"حرة... لقد حررتَها، يا شيخنا؟"

أومأ الشيباني بهدوء، وقال بصوت منخفض لكنه حازم:

"نعم. لم يكن هذا حقاً لي لأحتفظ به. كريمة كانت دائماً أكثر من مجرد جارية. واليوم، أرفع عنها هذا القيد نهائياً."

انفجرت كريمة بالبكاء، دموعها تنساب دون توقف، لكنها لم تكن دموع الحزن فقط. كانت دموع الحرية، دموع الامتنان، ودموع الذكريات التي تثقل روحها. مدت يديها المرتعشتين نحو الشيخ وقالت بصوت متقطع:

"شكراً... شكراً لك يا سيدي..."

ابتسم الشيباني بحرارة، ومد يده ليمسك بيديها، وقال برفق:

"كنتُ مقصراً. سامحيني... وساعديني الآن في البحث عن أخيك."

*****

هموم

بين شرود النعاس والتثاؤب، استيقظت فاطمة، زوجة الأمير، لتلتفت وتجد زوجها يقابلها بعرض كتفيه، وهو جالس بالقرب منها، نصف مغمض العينين، يتأمل في أفق الفضاء الخارجي من فتحة الخيمة. فاطمة بحركة هادئة، زحفت ببطء نحو عثمان، وبلطف أحاطته بأذرعها كنسيم دافئ يعانقه، ووضعت ذقنها برفق على كتفه. بعد لحظات من الصمت، خرجت كلماتها بلطف معقبةً:

"ألم تنم يا عثمان؟"

رده عليها بصوت مثقل بالهموم وهو يمسك بذراعيها برفق:

"حاولت، ولكن بلا جدوى، فعقلي مشغول بتحليل الأحداث التي جرت مؤخراً."

زادت فاطمة من احتضانها له وقالت بصوت حنون:

"أنت تبذل جهداً كبيراً، ولكن الأمور معقدة حقاً، ويصعب تفسيرها."

أجاب الأمير باستسلام لواقعه وهو يغوص في حنان زوجته:

"كيف حال ابنتنا؟ لابد أنها حزينة على ذلك الشاب المسكين."

صمتت فاطمة متذكرة حالة ابنتها زهرة الليلة الماضية، ثم قالت:

"لقد كانت حزينة جداً، لم تتوقف عن البكاء حتى نال منها التعب ونامت."

قال الأمير بتفهم:

"ذلك الشاب أثار مشاعر الجميع بصدق ونقاء."

بلطف، وكأنها ترسم لوحة من الحنان، وهي مستمرة في احتضانه طبعت قبلة رقيقة على خده الذي يشع بالهدوء والحزن في آنٍ واحد.

"معكَ حقٌّ يا أميري."

كانت همسة قليلة تعبّر عن تفهّمها للأمير والتضحية التي يقوم بها. وبينما تتلوى أشواقها وأفكارها، انفصلت عنه لتؤدي صلاتها.

في ذات الوقت، قام الأمير بارتداء زيه الرسمي، وخرج يتجول في أزقة المخيم بخطوات ثابتة وعزيمة لا تلين. كان يتبادل التحيات مع أهالي المخيم، ويسارع في سيره بغية تفادي أي مواجهة تستدعي منه أي تفسير للتساؤلات. وفي نهاية رحلته، وصل إلى طرف فخظ الكمداني، الجزء الأكثر ازدحاماً وحيويةً في المخيم الكبير.

ولكن كانت المصادفة، حيث وجد الأمير أمامه الشيخ الشيباني، الرمز الأكبر للحكمة والسلطة، وهو يمتطي جواده بانتصاب يعكس قوته وقدرته. توقف الأمير للحظة، متبادلاً النظرات مع الشيخ، وكأنهما يفهمان لغةً سرية تحكي قصةً لم تروى بعد.

انحنى الشيخ لينزل إلى الأرض، وما لبث أن تقدم بخطوات ثابتة نحو الأمير، الذي بدوره سار نحوه بنفس الثبات ليتبادلا الأحضان في لقاءٍ مليء بالتعبير عن الصداقة والاحترام.

"كيف كانت ليلتك؟"

سأل الأمير بتساؤل، محاولا اكتشاف تفاصيل لم تظهر على وجه الشيخ

أجاب الشيباني بصوتٍ يختلط فيه القلق والترقب:

"لم أجده بعد."

لم تلبث عبارة الشيباني أن استقرت في الهواء حتى رد الأمير بحزم:

"يا شيباني، هل هناك ما يجب عليْ معرفته؟"

نظر الشيباني إليه بنظرةٍ تشعّ ببريقٍ يحمل الكثير من المعنى، كما لو أنها تحمل أسراراً لم تكشف بعد، وأفكاراً تختبئ في أعماق اللوحة الزمنية.

*****

بين اليقظة والكابوس

داخل خيمة كبيرة مضاءة بنور نار كبيرة، اجتمع عشرات رجال يتبادلون الأحاديث بحيوية، ملتفين حول رجل ضخم الجثة، يستند على مرفقه برزانة. كان هذا الرجل مركز الاهتمام، وحينما يتحدث، يسود الصمت المكان، إذ ينصت له الجميع بانتباه عميق. الضحكات الخفيفة والمجاملات المتبادلة تملأ الأجواء بروح من الألفة والاحترام.

وفي زاوية الخيمة، كان هناك رجل آخر يجلس بصمت، يراقب ما يجري من بعيد بترقب واهتمام. كانت عيناه تتنقلان بين وجوه الرجال وأحاديثهم، وكأنه يسعى لفهم كل ما يدور داخل الخيمة، دون أن يفوته أي تفصيل.

لم تمر لحظات حتى شق صوت صراخ قوي سكون الخيمة. تجمد الرجل في مكانه من الذهول، ولم يكن وحده، إذ شعر كل الرجال الآخرين بذات الشعور، خاصة الرجل الكبير

الذي كان يجلس بينهم. كان الصوت ينادي عليه بالذات، مما زاد من حدة التوتر في الأجواء.

بعد وهلة، اندفعت خادمة تحمل طفلاً صغيراً

إلى داخل الخيمة. شقت طريقها بسرعة بين الرجال، وجهها مملوء بالخوف والذعر. تقدمت نحو الزعيم بارتجاف، في حين كانت العيون تطالعها بقلق وترقب. صاح الزعيم قائلاً:

"ما بك؟ ماذا حدث؟ هيا، تحدثي أيتها الخادمة!"

تلعثمت الخادمة، ووجهها مبلل بالدموع، وقالت بصوت مرتجف:

"سيدي، إن السيد فاضل..."

صاح بها الرجل بلهفة وقلق:

"تحدثي، ماذا جرى لفاضل؟"

ردت الخادمة بصوت مفجوع:

"السيد فاضل، قد مات يا سيدي."

عنـدها، توقـف الـزمن بالنسـبة للجميـع. أصـابتهم الصـدمة كالصاعقة. الشخص الذي مات كان عزيـزاً علـيهم، وخاصـة السيد الكبير الذي كان يخاطـب الخادمـة. تصـلب فـي مكانـه، عاجزاً عن النطق بكلمة واحدة، بينما وقف الرجال في ذهول شديد، غير مصدقين لما سمعوه.

فـي تلـك اللحظـات الكئيبـة، كـان الرجـل الجـالس فـي زاويـة الخيمة يراقب المشهد بعيون متسعة من الصـدمة. نـبض قلبـه كان يضرب صدره بعنف، كعاصفة هوجاء لا تعرف الهدوء. الدموع بدأت تتسلل ببطء من تحت جفونه الثقيلة، وكأنها تجد طريقها بصعوبة وسط بحر من الألم والخـوف. وجسده كـان يرتعد كأوراق الشجر في يوم عاصف، تملأه القشـعريرة مـن هول ما يرى.

لـم يلبـث طـويلاً حتـى بـدأ يصـرخ بـألم لا يوصـف، صـوت صرخاته كان مدوياً، كـأن صـدى مـرارة الفاجعـة يتـردد فـي أرجاء الخيمة، يعكس بؤس روحه المعذبة.

فجـأة، تمـزق ظـلام الكـابوس باسـتيقاظ مفـاجئ. فـتح لحبيـب عينيه ليجد نفسه مستلقيا تحت زرقة السماء الباهتة في صباحٍ خافت الضوء. جلس ببطء، يمسح وجهـه بيديـه المرتعشـتين، وقال بصوت مبحوح:

"يا له من حلم مزعج، مرة أخرى."

بينما كان نسيم الصباح يعم المكان. اقترب رجل من لحبيب وسأله بصوت خافت:

"هل رأيت كابوساً يا لحبيب؟"

رفع لحبيب رأسه ببطء ونظر إلى الرجل بابتسامة خفيفة ترتسم على شفتيه، قائلاً:

"نعم، يمكن أن تقول ذلك."

لم يستطع الرجل إخفاء فضوله، فتقدم خطوة أخرى وسأل:

"ماذا رأيت؟"

لحظتها، انتشل لحبيب نفسه من مكانه ببطء، متجنباً الحديث عن تفاصيل الكابوس، وقال وهو ينفض الغبار عن ثيابه:

"ليس بالأمر المهم."

ابتسم الرجل في صمت ثم تقدم عدة خطوات نحو لحبيب وقال:

"فلتستعد، سأوقظ الرجال. يجب أن نصل إلى أطار قبل الغروب."

أجاب لحبيب وهو ينظر نحو الأفق:

"حاضر يا سيد مختار."

بدأ لحبيب في تفقد بندقيته، متأكداً من جاهزيتها للمهمة القادمة. بعد لحظات، كان يقف ممسكاً بلجام حصانه في يد ومقبض بندقيته في اليد الأخرى.

بجانبه، وقف أربعة رجال، وهو خامسهم، جميعهم يرتدون لباساً أسوداً، رؤوسهم ملفوفة بعمامة سوداء أيضاً. كان مشهدهم يوحي بالهيبة والعزم.

تقدم المختار قائد المجموعة، عينيه تراقبان الأفق في الشمال الشرقي، وقال بصوت ثابت:

"فلنجد بنت السيد."

*****

قلب زهرة ويد عائشة

انتصف النهار في مخيم أولاد شداد، وازدحمت الأزقة بالمارة الذين يتحركون بانشغال. الطبيبة عائشة، بزيها الأزرق الذي يغطيها بالكامل، كانت تشق طريقها بخطى سريعة بين الجموع.

إلى جانبها كانت كريمة، وخادمتها فضيلة التي حملت الأدوات الطبية بحرص، يتنقلن وسط الحشود المتدافعة بتركيز وتصميم.

لم يطل الأمر حتى بدت خيمة الأمير شامخة وسط الخيام، تتألق بهيبتها العتيقة. ولكن عائشة لم تتجه نحوها، بل انحرفت باتجاه خيمة مجاورة، حيث كانت السيدة فاطمة، زوجة الأمير، تنتظرها بترقب.

رحبت السيدة فاطمة بالطبيبة، وقادتها إلى داخل الخيمة. فوجئت عائشة بوجود عدد من الأشخاص داخل الخيمة، يتوسطهم عبد الفتاح، ابن الأمير، مضجعاً على ظهره وفاقداً

للوعي. جسده كان ملفوفاً بضمادات عديدة، وقد تلطخت ببقع من الدم. اقتربت الطبيبة، ولفت انتباهها مريم، زوجة عبد الفتاح، والتي كانت تحتضن رأسه بين يديها، وقد غمرت الدموع عينيها. تمتمت بصوت مختنق:

"أرجوكِ يا سيدتي، أنقذي زوجي. عاد من الوادي مصاباً بجروح عميقة، ومنذ ذلك الحين حالته تزداد سوءاً حتى فقد وعيه."

بادرت عائشة بفحص حرارة جسده ونبضه، ثم كشفت عن جروحه بحذر. تأملت للحظات قبل أن تقول بصوت منخفض:

"جروحه معيبة، وقد زاد التلوث من سوء حالته."

رد الشيخ المداوي، الذي كان يقف بالقرب، قائلاً:

"لقد نظفتها جيداً، لكن لم يجدي ذلك نفعاً."

ابتسمت له الطبيبة بلطف، ثم نظرت إلى الحضور وقالت بهدوء وحزم:

"أرجو من الجميع الخروج الآن. سأحاول معالجة حالته. يبدو أن الجروح متلوثة بشدة، وسيتطلب الأمر تنظيفاً عميقاً. أحتاج أن يبقى معي الشيخ المداوي ومساعدتي فقط."

خرج الجميع على مضض، تاركين الطبيبة لتباشر عملها في صمت، بينما كشفت عن ساعديها واستعدت لما قد يكون علاجاً شاقاً.

في لحظة حاسمة، قالت عائشة:

"فضيلة، قربي معداتي إلى هنا."

تقدمت فضيلة بسرعة، تحمل السلة بين يديها، ووضعتها أمام عائشة. دون تردد، غرقت يدي عائشة في أعماق السلة، تبحث بين أغراضها، حتى أخرجت سكيناً أبيضاً وسميكاً.

ناولت السكين للطبيب قائلة،

"سيدي، اجعله في النار حتى يسخن."

تناول الطبيب السكين من يدها وغادر لينفذ طلبها. في تلك الأثناء، بدأت عائشة بنزع الضمادات عن جروح عبد الفتاح، وتفحصتها بدقة. كانت الجروح عميقة وخطرة، مما جعلها تهمس بنبرة منخفضة وهي تمر بأناملها فوقها،

"ستتألم كثيراً، يا سيد عبد الفتاح."

***

في زاوية أخرى من الصحراء، شرق المخيم، وعلى الطريق الرابط بين وادي النخيل ومخيم القبيلة، كانت زهرة تمتطي حصان والدها وتنطلق بسرعة نحو المخيم. قناعها المعتاد كان يخفي ملامح وجهها، لكن عينيها كانتا تفضحان ما يعتمر بداخلها من حزن وقلق. إلى جانبها كان يسير بياني، صديق عبد الفتاح الوفي. الشيخ المداوي قد عهد إلى زهرة بمهمة حاسمة بجلب الأعشاب الطبية المنشطة من حديقة النخيل الخاصة بها، لعلاج شقيقها المريض.

لم تمضِ سوى لحظات حتى اخترق الاثنان حدود المخيم، وشقّا طريقهما بين الخيام نحو والوسط. كان الناس يراقبون زهرة بعيون متسائلة وملامح يكسوها القلق والفضول، يتساءلون عن هوية هذه المرأة المقنعة التي تمر بينهم على عجالة.

لم تكن الخيام العتيقة قادرة على كتم همسات القلق التي تنتشر بين الناس، وكلما اقتربت زهرة من خيمة المصاب، كانت نظرات الاستفهام تزداد. أخيراً، توقفت حوافر حصانها عن الركض أمام الخيمة التي بها عبد الفتاح.

انزلقت زهرة عن الحصان بخفة، وعيناها تتطلعان بترقب إلى الخيمة. بيدين مرتجفتين تحمل كيسا جلديا صغيرا يحوي الأعشاب الطبية التي جمعتها بعناء. تقدمت إلى الخيمة بخطوات سريعة، والأمل يتسلل إلى قلبها، متمنية أن تكون قد جاءت في الوقت المناسب لإنقاذ شقيقها المريض.

لكن فجأة، شق صوت أمها فاطمة الهواء وهي تناديها. التفتت زهرة بسرعة لترى والدتها تقف أمام خيمة أخرى، تستدعيها بلهفة. ترددت زهرة للحظة، ونظرت مرة أخرى نحو الخيمة التي يوجد بها عبد الفتاح، لكنها رأت فقط الشيخ المداوي وسيدة لم تتعرف على هويتها.

القلق اعتصر قلب زهرة وبدأت رعشة خفيفة تسري في أطرافها. لم تستطع منع الدموع من الانهمار من عينيها. بخطوات متسارعة، تقدمت نحو والدتها، التي استقبلتها بحضن دافئ مليء بالحنان. بينما كانت زهرة تجهش بالبكاء، همست بصوت مجهد:

"ما به أخي؟ لماذا لستم معه؟"

ردت فاطمة وهي تمسح دموع زهرة برفق:

"لا تقلقي يا صغيرتي. لقد فقد وعيه بعد مغادرتك، لذا طلبت حضور عيشه بنت الشيخ أحمد. فحصته وقالت إن جروحه قد تلوثت."

تغير لون وجه زهرة وهي تستوعب ما تسمعه، والقلق يزداد في قلبها. فجأة، جاءها صوت مألوف، صوت تعرفه جيداً، يهمس من خلف أمها:

"لا تقلقي يا بنت الأمير. ستتمكن سيدتي من معالجته بإذن الله، كما فعلت معي."

كان الصوت لكريمة، ويعكس في طياته صبراً وثباتاً عميقين. نظرت زهرة إلى كريمة، وذكريات صديقها المفقود سالم قد طغت على ذهنها. بدأت مشاعر الخوف على حياة أخيها وصديقها تتصارع بداخلها بشكل متزايد، وفي محاولتها لكتمان ألمها، انهمرت الدموع بصمت على وجنتيها.

وبصوت مخنوق بالحزن، همست زهرة بكلمات لا يخجل قائلها:

"لا حول ولا قوة إلا بالله."

تبع تلك الحوقلة لحظات من الصمت الثقيل، بعدها أمسكت فاطمة بيد زهرة وأخذتها برفق نحو الخيمة. دخلت زهرة بخطوات متثاقلة، وجلست بين أفراد عائلتها بجسد منهك وقلب مكسور. بحثت عن الأمان في أحضان شقيقها الأكبر صلاح، ودفنت وجهها في صدره باكية.

في زاوية الخيمة، جلست كريمة وحدها تراقب ما يحدث. نظراتها كانت تتابع بحزن كل ما تتلقاه زهرة من حب وتعاطف وحنان من عائلتها، مما أشعل في قلها نار الشوق لشقيقها المفقود وأمها الراحلة. لم تستطع كريمة كتمان

أحزانها، فتسللت الدموع الساخنة على وجنتيها البريئتين، تشهد على ألم الفقد والوحدة التي تشعر بها.

مرت اللحظات كالسنين على زهرة وعائلتها، يترقبون بقلوب واجفة. ومن وقت لآخر، كان صوت صراخ عبد الفتاح يمزق سكون المكان، مما يزيد من قلقهم ورعبهم.

في الخيمة الأخرى، كانت الطبيبة عيشة تعمل بجد، تتصبب عرقاً محاولةً كيّ جروح عبد الفتاح بالحديد الساخن. وكلما لامس الحديد الجرح، كان عبد الفتاح يترنح بقوة، ولكن عيشة لم تتراجع. بثبات وحرفية، كانت تواصل عملها، مظهرة مدى مهارتها في العلاج. مرت لحظات أخرى عصيبة، ثم أعلنت عيشة بنبرة انتصار:

"الحمد لله، لقد انتهينا."

جلست على الأرض، تغسل يديها بعد أن ضمدت جراح عبد الفتاح وسقته تركيبة قوية من أعشابها العلاجية. براعتها لم تكن فقط في العلاج نفسه، بل في قدرتها على السيطرة على الموقف تحت الضغط، وإتمام عملها بدقة وإتقان.

بهيبتها وخلقها الرفيع، تقدمت عائشة بخطوات واثقة نحو مجلس عائلة الأمير، حيث خرج كل أفراد العائلة من الخيمة بعيون مليئة بالترقب والأمل، ينتظرون الأخبار التي تحملها الطبيبة.

عندما وصلت، أنزلت عائشة قناع وجهها وابتسمت لهم ابتسامة مطمئنة. لم يستطع صلاح كبح قلقه وفضوله، فسألها بلهفة وحرص:

"كيف حال أخي، أيتها الطبيبة؟"

أجابت عائشة بثقة وإيمان راسخ:

"الحمد لله، لقد تمكنت من تنظيف جروحه وإيقاف نزيفها تماماً. الشفاء التام بيد الله، ولكن الأمور تسير على ما يرام الآن."

سألت مريم بلهفة، وعيناها يملؤهما القلق:

"هل سيستفيق من هذا الإغماء؟"

ردت عائشة بثقة هادئة:

"نعم، سيستفيق قريباً بإذن الله."

أضافت فاطمة، زوجة الأمير، بامتنان:

"كل الشكر لكِ، يا ابنتي."

ابتسمت عائشة بتواضع وجمال، وقالت:

"لا تشكريني، سيدتي، أشكري الله، فهو صاحب الفضل."

ابتسمت فاطمة بإعجاب، معبرة عن احترامها لخلق عائشة.

ثم قالت زهرة، بتعب ظاهر على ملامحها:

"أتمنى لكِ كل الخير، يا أختي، تستحقين الشكر حقاً."

أومأت عائشة برفق وهي تبتسم لزهرة، قائلة:

"شكراً لكِ، زهرة. أتمنى الشفاء العاجل لعبد الفتاح"

أتبعت بلطف:

"الآن اعذروني، هناك مرضى ينتظرونني."

ردت أصوات الحاضرين بتفهم وتسامح، وبدت الابتسامات المتواضعة، بعدها انطلقت عائشة بخطوات هادئة، وصوتها الرقيق يترنح في الهواء، ورافقها كريمة، فضلية، وصلاح، الذي كان يحمل بلا عناء أغراضها.

***

تمرّ الساعات الأولى من فترة الظهيرة بسكون مطبق، ويجلس أفراد العائلة الحاكمة حول مُتكأ عبد الفتاح، الذي كان يرقد بسلام.

يخيم الصمت الثقيل على المكان، ولا تسمع سوى همسات الدعاء الصامتة التي تتناثر هنا وهناك، كأنها أوراق شجر تتراقص بلطف مع نسمات الريح.

فجأة طغى صوته، كالهمس العاصف، صوت الأب الحنون، والزعيم العظيم، حاملاً بين جنباته قافلة الأمل:

"السلام عليكم ورحمة الله وبركاته."

هكذا انبعثت عبارات السلام من شفاه الأمير عثمان، وهو يتقدم بثبات نحو خيمتهم.

وقفت كل من فاطمة، زوجته الوفية، وزهرة، ابنته الغالية، ومريم، نسيبتُه العزيزة، محترمين ومبتسمين بشرف وصوله.

استبشر المكان بفرحهم وبهجتهم، مرحبين بزائرهم المميز بكل حفاوة وترحيب. أعددن له متكأً فجلس بهدوء، ثم قال بصوتٍ هادئ:

"كيف حال عبد الفتاح؟ سمعت أنه فقد وعيه."

أجابت مريم، زوجة عبد الفتاح، بصوتٍ مفعم بالقلق:

"لقد فقد وعيه. فاستدعينا طبيبة جلفون لتساعده. هذا ما حدث، يا سيدي."

أضافت فاطمة، محاولةً تهدئة الأجواء:

"الحمد لله، حالته مستقرة بفضل الله والطبيبة عيشه."

ابتسم الأمير بثقة وقال:

"ابني قوي، سيكون بخير بإذن الله."

ردت النساء الثلاثة بصوتٍ واحد:

"آمين."

سألت مريم بنبرة يملأها الفضول:

"وأنت، أين كنت سيدي الأمير؟"

قبل أن يجيب الأمير، قالت فاطمة بصوتٍ مقاطع:

"كان برفقة الشيخ الشيباني."

تدخلت زهرة بتعبٍ ظاهر على ملامحها:

"هل هناك اخبار عن سالم؟"

"ليس بعد."

قال الأمير، فساد الصمت في الخيمة للحظاتٍ قصيرة، فعاد ليقطعه بنبرةٍ جادة:

"لقد أخبرني الشيخ بأمرٍ صادم."

ارتفعت نظرات الجميع نحوه بدهشةٍ، وسألت فاطمة بقلق:

"بماذا أخبرك بالضبط؟"

تردد الأمير قليلاً قبل أن يجيب:

"قال إن ذلك الشاب ليس عبداً، ولم يكن يوماً عبداً."

سرت موجة من الصدمة بين الحضور. كانت ملامح الدهشة مرتسمة على وجوههم، وحاولت فاطمة فهم ما قاله الأمير:

"لكنه يبدو كالعبد، فكيف يكون غير ذلك؟"

نطقت زهرة بكلمات قلقة لوالدها وسألته باضطراب:

"لكن، يا أبي، أليس الشيباني رجل نبيل؟ كيف له أن يعامل سالم كعبد؟ إن لم يكن كذلك!"

عدل الأمير جلسته بعدما كان مستلقياً على مرفقه وقال بصوتٍ يحمل في طياته الكثير من الغموض:

"هناك سر كبير خلف ما تسألين عنه، والشيخ لم يخبرني به رغم إلحاحي عليه."

شعرت زهرة باضطراب متزايد وهي تفكر في مصير صديقها الشاب سالم. كانت الأفكار تدور في رأسها مثل دوامة لا تنتهي.

"ماذا أصابك يا سالم؟ لماذا لم تعد؟ لما لم تعد إلى أهلك وأختك."

تسارعت دقات قلبها أكثر وهي تهمس لنفسها: "لما لم تعد إلي." في تلك اللحظة، ارتفع صوت الأمير بقوة وطَمأنة، مبدداً بعضاً من مخاوفها:

"لا تقلقوا، سأبذل كل ما في وسعي لأجده. لقد أرسلت أربعين رجلاً برفقة الشيباني قبل قليل لمساعدته في البحث."

تلاقت عينا زهرة بعيني الأمير، ممتلئتين بالامتنان. تقدمت نحوه دون تردد، واحتضنته بقوة. ابتسم الأمير وهو يبادلها الاحتضان، ليعم الدفء بينهما في جو لطيف مفعم بالألفة والدفء العائلي.

كانت اللحظة قصيرة ولكنها تركت أثراً عميقاً في قلب زهرة، التي شعرت ببعض الطمأنينة لأول مرة منذ اختفاء سالم.

*****

سر بين الرمال والنجوم

تحت سماء مرصعة بالنجوم، بدت الخيام القديمة كأنها تتوهج بنور خافت. كان الهواء مفعماً برائحة الخشب المحترق وأصوات الليل الخافتة.

بعد انقضاء الساعات الأولى من الليل، تسلل النوم بخفة إلى أبناء قبيلة أولاد شداد، بعد أن أنهكهم التعب الناتج عن التحضيرات للعرس الكبير. كان يوماً مرهقاً وطويلاً، حيث ظلت أحداث اليوم السابق عالقة في الأذهان، مثقلة بالحزن والأسى.

وبينما بقي البعض يتأملون ما جرى بقلوب مثقلة، تمكن آخرون من تجاوز الأمر، مستمرين في حياتهم وكأن شيئاً لم يكن. ومع انطفاء آخر شعلة في المخيم، ساد سكون الليل، وعمّ النوم على الجميع.

لكن العيون الطموحة لشيخنه ابن الشيخ أحمد لم يغلبها شيطان النعاس بعد. استلقى على ظهره، عاري الصدر،

يشبك ذراعيه خلف رأسه، وعيناه تحدقان في سقف الخيمة. كانت أفكاره تجوب في أفق المستقبل، يخطط بعمق لسبل تحقيق طموحاته. كلما مرت نسمة ليل باردة، زادت من يقظته، مؤججة في قلبه شعلة الحماس والتحدي. لم يكن الليل بالنسبة له وقتاً للراحة، بل فرصة للتفكير والترتيب، ليرسم خريطة أحلامه الكبيرة.

جلس بسرعة وهو يمسح وجهه، محاولاً استعادة تركيزه. أراد النهوض والخروج من الخيمة، لكن يداً ناعمة أمسكت فجأة بمعصمه. تلتها همسات رقيقة تسللت إلى أذنيه كنسيم دافئ:

"هل ستذهب هكذا دون أن تودعني؟"

ابتسم شيخنه بحنان، وقال بنبرة مليئة بالدفء،

"ظننتك نائمة، ولم أرغب بإزعاجك."

ردت بصوت هامس يحمل في طياته شوقاً عميقاً:

"ما يزعجني هو ذهابك عني."

تردد شيخنه للحظة، ثم أجاب بلطف وهو ينظر في عينيها:

"من قد يرغب في ترك فتاة بهية مثلك؟"

كانت عيناها تتلألآن بشوق وسحر، وتملأ رائحتها العطرة الهواء من حولهما. اقتربت منه أكثر، وضعت يدها الناعمة على صدره، فأحس بدفء لمسة حبها يملأ قلبه. دفعته بلطف فسقط على ظهره مبتسماً، ثم جلست بقربه وهي تنحني لتمسك رقبته بيديها بلطف، كأنها تريد أن تؤكد له أنها لا تريد له الرحيل.

كانت الأنفاس تتلاحق بينهما، والوقت يتوقف في تلك اللحظة المثيرة. قال بهدوء وابتسامة عريضة تزين وجهه:

"كيف لي أن أتركك وأنت لا تعطين مجالا للتفكير في ذلك؟"

نظرت إليه بعينين مليئتين بالشغف، وابتسامة مغرية ترتسم على شفتيها. ثم همست بصوت خافت مليء بالحب:

"ابقَ معي، حتى يشرق الفجر علينا ونستقبل يوماً جديداً معاً."

ابتسم شيخنه بخبث، واقترب منها قليلاً قائلاً:

"ماذا لو جاء زوجك ووجدني في أحضانك؟"

تغيرت ملامحها عند ذكر زوجها، وغامت عيناها بيأس وهي تقول بصوت مكسور:

"أنا لا... لم أعد أهتم لأمره. فهو يبيت مع أصدقائه ونساء غيري بدلاً مني."

هز شيخنه رأسه بأسف، وقال بهدوء:

"للأسف، هكذا هو."

رفع يده إلى وجهها، وجذبها بلطف حتى تلامست أنوفهما، وهمس لها بحنان يذيب القلوب:

"لا تقلقي، غالباً سيتركك، وعندها ستجدينني في انتظارك، عزيزتي."

لم تستطع الفتاة تمالك نفسها أمام سحر كلماته ونبرة صوته الدافئة. أحست بشيء يشدها نحوه، فهوت عليه وقلبت شفتيه بشغف وحب، وكأن العالم قد اختفى من حولهما ولم يبقَ سوى نبضات قلبيهما المتسارعة واللحظة التي تجمعهما.

بعد لحظات، خرج شيخنه بهدوء من خيمة عشيقته، متخفياً تحت جناح الليل الحالك. كانت خطواته هادئة وحذرة، كأنما يخشى أن يوقظ النجوم من سباتها. مشى بخفة متسللاً بين الخيام، متجنباً الضوء الخافت المنبعث من بقايا النيران المشتعلة.

كان المخيم هادئاً، لا يُسمع فيه سوى همسات الرياح وهي تعانق الرمال، وأصوات الليل البعيدة. تابع شيخنه سيره بخطوات ثابتة، يحمل في قلبه مشاعر مختلطة بين الشوق والقلق.

عندما وصل إلى أطراف المخيم، توقف لبرهة، ألقى نظرة أخيرة على المكان، ثم مضى في طريقه، مستشعراً حرية الليل وسحره الذي يلفه بعباءة من الغموض والإثارة.

***

في مكان آخر تحت نفس السماء المزينة بالنجوم، جلس العربي ابن الشيخ الفرفار، الذي أصبح معروفا بلقب الشجاع، متثاقل العقل تحت تأثير الشراب. كان يميل بجسده المتعب على وسادة من القماش الفاخر، فيما كانت عيناه تائهتين في الفراغ. بجانبه، جلس مولاي، صديقه الثري، يراقبه بابتسامة خبيثة ترتسم على وجهه، بينما كانت عيناه تلمعان بلمحة من السخرية والاستمتاع بمشهد صديقه الغارق في سكره.

كان مولاي محاطاً بجواريه الثلاث، اللواتي جلسن بترتيب بديع يبرز جمالهن الفاتن. كانت حركاتهن رشيقة ونظراتهن ساحرة، كأنهن مصابيح وسط العتمة، يضئن المكان بسحرهن وغموضهن.

جلسن متأنقات بملابسهن الحريرية المطرزة، تفوح منهن رائحة العطور الزكية التي تعبق الهواء من حولهن.

تبادل مولاي نظرات متواطئة مع الجواري، كأنما يخطط لشيء ما. كان يحرك كأسه ببطء، يصدر صوتاً خافتاً وهو يرتشف منه. ثم أدار رأسه نحو العربي، وقال بصوت هادئ يحمل في طياته نبرة من التلاعب:

"يا ابن الفرفار، هل هذا هو حال الشجعان؟"

رفع العربي رأسه بصعوبة، محاولاً التركيز على كلمات صديقه، ولكنه لم يستطع إلا أن يبتسم ابتسامة باهتة، وقد أثقل الشراب لسانه وعقله.

تقدمت إحدى خادمات مولاي بخفة، تحمل إبريقاً من الشراب، لتصب المزيد للعربي. كان العربي يتمايل بجسده تحت ثقل النعاس والسكر، وعيناه شبه مغلقتين. قدمت له الخادمة كأساً آخر، لكنه لم يكن قادراً على شرب المزيد. بيد مرتجفة، أزاح الكأس من أمامه، وسقطت بضع قطرات من الشراب على الأرض.

بجهد كبير، نهض العربي على طوله، محاولاً استعادة توازنه. بخطوات متثاقلة وغير مستقرة، خرج من الخيمة وهو يترنح يميناً وشمالاً، غير مدرك لوجهته. كان الليل قد

غلف المخيم الصغير بسكونه، والنجوم تراقب بصمت من علياها.

تقدم العربي عدة خطوات مبتعداً عن الخيام، يعبر الرمال الباردة التي كانت تحت قدميه كأنها أمواج بحر هادئة. فجأة، تهاوى على ركبتيه، ولم يستطع السيطرة على جسده بعدها.

بدأ بالتقيؤ، يُخرج ما في جوفه وكأنه يفرغ أحماله الثقيلة من هموم الليل وكؤوس الشراب.

بعدها، نهض العربي محاولاً العودة لصديقه، لكن الإنهاك كان قد نال منه بالكامل. ترنح وسقط على يمينه مغشياً عليه، انشل جسده مستسلما لثقل الليل والسكر.

بعيون ثابتة وقلب هادئ، خرج مولاي من بين جواريه، ونادى بصوت هادئ وحازم على عبده المخلص أمبارك. حضر الأخير على الفور، عارفاً أن سيده لا يناديه إلا لأمر هام.

تقدم الاثنان نحو العربي، وحملاه بجهد مشترك إلى خيمة أخرى أكثر هدوءً، حيث وضعاه بلطف ليحظى ببعض الراحة والنوم.

وقف مولاي عند مدخل الخيمة، يراقب العربي لبضع لحظات، ووجهه يعكس تعبيراً من التفكير العميق. ثم استدار

وخرج بهدوء، وأسدل الأغطية خلفه برفق. بينما كان يبتعد عن الخيمة، همس لنفسه بسخرية مريرة:

"أنت أضعف من أن تعيش حياة اللذة يا صديقي العزيز."

في تلك اللحظة، عرف مولاي أن دوره لم ينتهِ بعد. كانت الليلة طويلة، لكنه كان على استعداد لتمضيتها بالتخطيط لمستقبل يريده لنفسه.

بخطوات ثابتة، دخل مولاي إلى خيمته، فوجد ضيفه المنتظر. ابتسم مولاي وقال:

"لقد تأخرت يا شيخنه."

انحنى شيخنه إلى الخلف مسترخياً على المخدة، وهو يبادل مولاي نفس النظرة والابتسامة الطموحة. قال بهدوء:

"كان لدي بعض الشؤون لأهتم بها."

ابتسم مولاي بخبث، وكأنه فهم ما يرمي إليه شيخنه، ثم قال بنبرة ماكرة:

"حسناً، أتمنى أن تكون قد ختمت نشاطاتك قبل مجيئك."

أومأ له شيخنه بالإيجاب، نظرة عينيه توحي بالثقة والتصميم. كانت هناك رغبة مشتركة بينهما، طموح خفي يتجاوز الكلمات ويتسرب من خلال النظرات والابتسامات.

كانت الجواري الثلاث يجلسن بانتظار أوامر مولاي، الذي لم يتأخر في إصدارها. نظر إليهن بحزم وقال:

"حلا، دنيا ورزا، انطلقن إلى خيمتكن ونمن، سألحق بكن بعد قليل."

أجبن بصوت واحد:

"حاضر يا سيدي"

ثم نهضن يتمايلن كأنهن أغصان البان، يلفتن الأنظار بجمالهن الفاتن.

عندها، فرقع مولاي بين أصابعه بحدة، فحضر أمبارك بسرعة حاملاً طبقاً كبيراً من الفضة، ممتلئاً بأشهى أنواع الطعام. وضعه بين شيخنه ومولاي باحترام، ثم تراجع خطوة إلى الخلف.

تبادل شيخنه ومولاي نظرات حادة، قبل أن ينحني مولاي قليلاً نحو الطبق قائلاً:

"لتكن هذه الليلة بداية لشراكة لا تنتهي."

ابتسم شيخنه بثقة وهو يأخذ قطعة من اللحم، ويقول بنبرة هادئة ومليئة بالعزم:

"بالفعل، فلنحقق ما نطمح إليه."

*****

الرحيل

صوت الأهازيج والطبول كان يصم الآذان في أرجاء المخيم، معلناً بداية اليوم الأول من أيام العرس الكبير. تمايلت الخيام على وقع الأنغام، وكأنها ترقص مع فرحة القبيلة.

بعد سبعة أيام من انتهاء بطولة الشجاعة، التي اختبرت فيها القبيلة قوة وشجاعة أبنائها، جاء الآن وقت الاحتفال وتوطيد العلاقات.

كان هذا اليوم محورياً، حيث يستعد أبناء القبيلة لبناء روابط جديدة وتعزيز الروابط القديمة. في الأيام القليلة الماضية، تقدم العديد من الشباب لخطبة الشابات، محاولين كسب ودهن وإعجاب أسرهن. كان التنافس شديداً، ليس فقط في القوة والبأس، بل أيضاً في إظهار النبل والشرف.

اليوم، ومع بزوغ شمس الفرح، تبدأ إقامة الأفراح. تجمع الناس من كل حدب وصوب، يجلبون معهم الهدايا ويزينون المكان بألوان الفرح والسرور.

كانت الأهازيج تعلو، تتخللها أصوات الطبول القوية. الأزقة الضيقة بين الخيام كانت تفيض بالحركة، إذ يتنقل الأطفال بين الأقدام الراقصة، بينما تجلس النساء يراقبن المشهد بابتسامات عريضة، يملأ قلوبهن الفخر والسعادة.

لم يكن هذا العرس مجرد احتفال، بل كان رمزاً لاستمرار الحياة والأمل، وعهداً بأن القبيلة ستظل متماسكة وقوية، مهما كانت التحديات.

في قلب خيمة الإمارة العظيمة، احتشد مجلس أسياد القبيلة تحت قيادة الأمير عثمان. بجانبه، جلس شيخ أولاد جلفون، الشيخ أحمد، وشيخ أولاد سيد حمد، الشيخ الفرفار. تحت ظل تلك الخيمة المهيبة، اتسمت الوجوه بالجدية والترقب.

كان صلاح وشقيقه عبد الفتاح، الذي تعافى حديثاً من إصابته، حاضرين، بينما جلس العربي ابن الشيخ الفرفار وشيخنه ابن الشيخ أحمد، في الزاوية بالإضافة إلى حامي حمى القبيلة، السيد بدري. كل الأنظار كانت متوجهة نحو الأمير عثمان، في انتظار بدء الاجتماع.

وقف الأمير فجأة، متقدماً إلى وسط الخيمة بخطوات ثابتة، فخفتت الهمسات وتوقفت كل الحركات. ارتسمت ابتسامة عريضة على وجهه، وأخذ ينظر إلى الوجوه المتجمعة أمامه بعينيه اللامعتين.

"أهلاً وسهلاً بكم جميعاً،"

قال الأمير بصوت مهيب يجذب انتباه الجميع.

"كما تعلمون، اليوم هو اليوم الأول من أيام العرس العظيم لقبيلتنا. وأود أن أستغل هذه الفرصة لأشارككم بعض الأخبار السارة عن أبنائي، عبد الفتاح وصلاح."

أشار بيده نحو الشابين الجالسين بجواره، اللذين ارتسمت على وجهيهما ابتسامة فخر وسعادة.

عمّ الصمت المكان، وكل الحضور متشوقون لسماع ما سيقوله الأمير.

قال الأمير ببهجة لا تخفى على وجهه:

"فيما يخص عبد الفتاح، لقد أبلغني اليوم بخبر يتمناه كل والد لولده. فزوجته مريم حامل بابنهما الأول."

ما إن نطق الأمير بهذه الكلمات حتى ضج الحضور بالفرحة، واستبشروا بالخبر السعيد. تصاعدت أصوات التهاني والدعوات بقدوم الولد سالماً معافى، وامتلأت الخيمة بجو من الحماسة والفرح. تحولت العيون نحو عبد الفتاح، الذي كان يبتسم بفخر، وقد احمرت وجنتاه من التأثر.

بعد لحظات، خيم الصمت مرة أخرى على الخيمة، وتركزت الأنظار نحو الأمير في انتظار الخبر الثاني. رفع الأمير رأسه ونظر إلى الحضور بابتسامة راضية، ثم قال بصوت يملؤه الفخر:

"صلاح، ابني البكر، وبعد طول انتظار، قرر أخيراً أنه سيتزوج خلال هذه الأيام."

لم يكن هذا الخبر أقل أهمية من سابقه، بل أضفى أجواءً من الحماسة والفرح داخل الخيمة. ضج الحضور مجدداً بالتهليل والتصفيق، وارتفعت الدعوات بالبركة والسعادة لصلاح في زواجه. تحرك الأصدقاء والأقارب لتقديم التهاني، وعبروا عن سعادتهم الكبيرة بقرار صلاح الذي طال انتظاره.

كانت الأنباء السارة من الأمير تملأ قلوب الحاضرين بالبهجة والارتياح. ومع ذلك، في زاوية الخيمة، كان شيخنه يجلس متأملاً، مرغماً نفسه على الابتسام وتقديم التهاني. لقد جاء هنا بحثاً عن أي أخبار قد تهمه، لكن ما سمعه حتى الآن لم يكن ذا قيمة بالنسبة له. في داخله، كانت الأفكار تدور بقلق:

"من يهتم بهذين الأحمقين؟ لماذا لا يتحدث الأمير عن ذلك العجوز الشيباني؟ ولماذا لم يحضر هو الآخر؟"

بعدها التفت شيخنه إلى العربي الجالس بجانبه وسأله بصوت خافت:

"لماذا لم يحضر مولاي؟"

نظر له العربي بعينين متعبتين وقلبه مثقل بالهموم، ثم همس:

"لا أدري، ظننت أنه سيأتي مبكراً."

لاحظه شيخنه بتمعن، ثم قال ملاحظاً على حالته:

"ماذا عنك؟ أنت هنا، لكن عقلك غائب تماماً."

ابتسم العربي ابتسامة خافتة، وعيناه يملؤهما النعاس، وهو يتذكر شجاره مع زوجته صباح اليوم عندها قال: "أنا متعب فقط."

طالع شيخنه حالته بانتباه شديد، ولاحظ أن العربي يحاول إخفاء أمر ما. أراد شيخنه أن يسأل العربي أكثر عن حاله، لكن فجأة خيّم الصمت على الخيمة. وعيون الجميع مشدودة فاتجاه واحد.

وجه شيخنه بصره بسرعة ليرى ما الذي أثار انتباه الجميع. هناك، في المكان المخصص لشيخ الكمداني، جلس محمد ابن الشيخ الشيباني، محطماً الأعراف والتقاليد بجرأة غير متوقعة.

تحرك الأمير بسرعة، واقفاً من مجلسه، وتقدم نحو محمد بخطوات سريعة، وملامحه تعكس ضيقاً واستياءً واضحين. وقف أمامه وقال بصوت يحمل نبرة التوبيخ:

"لماذا جلست في مكان والدك؟ ماذا تظن نفسك؟"

كان التوتر في الجو ملموساً، وكأن الجميع حبسوا أنفاسهم انتظاراً لرد محمد. وقف محمد بثبات، وعيناه تلتقيان بعيني الأمير بلا تردد:

"والدي لن يتمكن من الحضور، وأنا هنا لأمثل مكانه."

كانت كلمات محمد واثقة، لكن الرد لم يخفف من حدة التوتر. نظر الأمير بتمعن إلى محمد، محاولاً قراءة ما وراء تلك الكلمات، بينما بدأ الحاضرون يهمسون فيما بينهم، يتساءلون عن السبب الحقيقي وراء غياب الشيخ الشيباني وجرأة ابنه على الجلوس في مكانه.

في زاوية الخيمة، شعر شيخنه بأن الأحداث تأخذ منحى غير متوقع، وأن شيئاً كبيراً قد يحدث في هذا اليوم. كانت عيون الجميع على محمد، ولكن عقل شيخنه كان مشغولاً بالتفكير في الأسباب والخفايا التي قد تكمن وراء هذا المشهد الغريب.

قال الأمير بنبرة متسائلة وهو يقبض على كتف محمد بقوة:

"ماذا تقصد بأن تمثل مكانه؟ ماذا حدث؟ تحدث يا فتى."

رفع محمد بصره نحو الأمير، وعيناه تلمعان بالحزن، وقال:

"والدي، الشيخ الشيباني، غادر القبيلة البارحة منتصف الليل. قال إنه سيغيب لفترة، وعهد إليّ بقيادة الفخظ إلى حين عودته."

ساد الصمت في الخيمة مجدداً، لكن هذه المرة كان ثقيلاً ومليئاً بالتوتر. الجميع كانوا يحدقون بمحمد، يحاولون استيعاب ما قاله. الأمير، الذي كان يمسك بكتف محمد، تراجع خطوة إلى الوراء، وقد ارتسمت على وجهه علامات القلق والدهشة.

همس أحد الحاضرين بصوت منخفض:

"الشيباني لم يسبق أن غادر القبيلة بهذه الطريقة، ماذا يمكن أن يكون قد حدث؟"

في زاوية الخيمة، كان شيخنه يراقب الأحداث بتوتر متزايد. كان يعلم أن غياب الشيخ الشيباني ليس أمراً عادياً، وأن هذا الغياب يحمل في طياته أسراراً وأحداثاً قد تغير مجرى الأمور في القبيلة.

تقدم الأمير خطوة أخرى نحو محمد، محاولاً الحفاظ على هدوئه رغم اضطراب مشاعره، قال بصوت أقل حدة:

"محمد، هل أخبرك والدك عن سبب رحيله؟"

قال محمد بهدوء في صوته:

"لا، لم يفعل."

ساد الصمت في الخيمة مرة أخرى، إلا أن هذه المرة كان أثقل وأكثر ضغطاً. شعر الجميع بوجود سبب خفي وراء رحيل الشيخ الشيباني، وبدأت الأفكار تتجه نحو سالم، الشاب الذي كان في خدمة الشيخ لفترة طويلة.

لكن لم يجرؤ أحد على التحدث عن الأمر بشكل مباشر، فقد كانت هناك رهبة من محاولة الاطلاع على السر الذي ظل مخفياً لسنوات.

وقف محمد ينظر إلى الحاضرين بنظرات ثاقبة، حاملاً في داخله سر والده وشقيقه المفقود، مدركاً أن الوقت لم يحن بعد للكشف عن الحقيقة. كان يعرف أن الجميع ليسوا مستعدين لمعرفة العلاقة المعقدة بين الشيخ الشيباني وعبده الشاب سالم، أو حتى ماضي الخادمة الراحلة رحمه التي ظهرت الكثير من الاحداث بعد موتها.

بينما استمر الصمت المخيف في الهيمنة على الجو، شعر شيخنه بأن هناك شيئاً أكبر يختبئ خلف هذا الهدوء. كانت التساؤلات تدور في ذهنه بلا توقف، ولكن الحذر كان يسيطر عليه، مما جعله يفضل الانتظار قبل طرح أي استفسار قد يزيد من التوتر.

في تلك اللحظة، تنهد الأمير، ثم قال بصوت مبحوح من التفكير:

"حسناً، محمد، سنلتزم بما أوصاك به والدك... لكن أخبرني هل ذهب بمفرده؟"

تذكر محمد كريمة التي كانت معه أثناء استعداده للرحيل، فهز رأسه للأمير مؤكدا أن والده ذهب بمفرده. أومأ له الأمير بتفهم.

ببطء، بدأت الأحاديث تتجدد بين الحاضرين، لكن شعور الغموض لم يزُل. كان الجميع يدرك أن هناك شيئاً كبيراً يخبئه المستقبل، وأن الحقيقة قد تظهر في أي لحظة، لتكشف عن أسرار الماضي وتعيد تشكيل الحاضر والمستقبل.

*****

ضيوف

بعيداً غرب المخيم، تحت ظلال الأشجار الوافرة التي تمتد على طول طرف وادي لحنوك، كانت أنفاس الخيول تتلاحق، بعد جري طويل ومتعب.

لكن الركاب الخمسة لم يشعروا بنفس الإرهاق. حيث تجمعوا في دائرة، يتبادلون نظرات جادة وحازمة، تشي بعزم لا يتزعزع.

وقف قائدهم المخضرم، يتأملهم بعينين حادتين. نزع بندقيته عن كتفه بحركة سريعة، ثم ضرب الأرض بمسندها، فصدر صوت ارتطام المعدن بالتراب. كان الصوت ثقيلاً، يبعث رهبة في النفوس، ويجعل الصمت يحكم قبضته على المكان.

في تلك اللحظة، كانت الرياح تمر برفق بين الأشجار، كأنها تهمس بأسرار لا يعرفها سوى هؤلاء الرجال، بينما كانت

عيـونهم تتطلـع إلـى قائـدهم، منتظـرين كلماتـه التـي سـتحدد مصيرهم القادم.

قال المختار بصوت خشن وقوي، يحاكي صـدى الريـاح بـين الأشجار:

"اسمعوا، مخـيم قبيلـة أولاد شـداد لـيس ببعيـد عـن هـذا الوادي."

أشار بيده نحو الشرق، حيث يمتد المخيم بعيداً عن أنظارهم:

"سيكون علينا التنكر فـي لبـاس عـادي وإخفـاء أسـلحتنا حتـى نتمكن من الدخول إلـى مخيم القبيلة."

لحبيب، صاحب النظرات الثاقبة، رفع حاجبيه بتساؤل وقال:

"أعذرنـي يا سيدي، لكـن إذا دخلنـا معـاً، ألـن يثيـر ذلـك ريبتهم؟"

أومأ المختار بتفهم، وألقى نظرة متفحصة على رجاله:

"معك حق، لقد غفلت عن ذلك."

عندها استل لحبيب سكينه اللامعة من حزامه، وجلس على ركبته، وبدأ يرسم خطوطاً على التراب، سهمين متفرعين من نقطة واحدة، يتجهان نحو المخيم:

"علينا أن ننقسم إلى مجموعتين، وندخل من أماكن متفرقة. بهذه الطريقة، لن يشكوا بنا."

نظر المختار إلى الخطة المرسومة على الأرض، تأملها بتمعن، ثم رفع بصره نحو لحبيب وأومأ برأسه مؤكداً على موافقته.

كان الظهر يقترب، وظلال الأشجار بدأت تتقلص، تخفي في طياتها أسراراً وخططاً تنتظر التنفيذ. مرت لحظات أخرى، والخمسة يتقدمون على أحصنتهم بثبات، مستعينين بصبر لا ينفد.

لم تطل رفقتهم حتى تفرقوا، حيث انطلق اثنان منهم لدخول المخيم من طرفه الجنوبي، بينما واصل المختار ولحبيب ورفيقهما الثالث التقدم في خط مستقيم نحو قلب المخيم.

كانت نسمات الصيف الدافئة تلاعب ثيابهم القماشية، تهمس بأغاني الرياح بين الأشجار، وهم يتقدمون ببطء مدروس. كل خطوة كانت محسوبة، وكل حركة مدروسة، استعداداً لما قد يواجهونه. لم يطل الانتظار حتى بدت لهم قمم الخيام من بعيد، تلمع تحت ضوء الشمس الساطع.

المنظر كان عجيباً، خلاباً في بساطته. لم يسبق لهم أن رأوا مخيماً يتربع بهذا الجلال على ظهر هضبة. كانت الخيام متراصة بأناقة، وكأنها تتحدى الزمن والطبيعة.

الشمس كانت تنعكس على الأقمشة، مرسلة بريقاً يجعل المشهد يبدو كحلم يتداخل مع الواقع. كان هذا المخيم عالماً بحد ذاته، عالماً ينبض بالحياة والتحدي.

لم يطل الأمر حتى وجدوا أنفسهم داخله، بعدما حالفهم الحظ بالانخراط داخل مجموعة كبيرة كانت تتجه نحو مخيم شداد.

سحر المكان عقولهم وأصابهم بالدهشة. الخيام كانت كثيرة، وأزقتها مكتظة بالمارة. تحت الأقدام، كان الأطفال يلعبون ويمرحون بفرح بريء، ضاحكين بصوت يتردد صداه في أرجاء المخيم.

كان لحبيب مذهولاً، عيناه تتسعان من الدهشة. جمال المكان وكثرة الناس والصخب أسره تماماً.

المكان ينبض بالحياة، بألوانه الزاهية وروائحه العطرة المنبعثة من أشكال الطعام المنتشرة هنا وهناك. الخيام نفسها كانت تزدان بزخارف وألوان بديعة، تعكس حيوية القبيلة وثراء ثقافتها.

الأصوات كانت تتداخل؛ ضحكات الأطفال، نداءات الباعة، وأحاديث الناس. كانت هناك موسيقى تعزف من بعيد، تضفي على المشهد جواً من البهجة والاحتفال.

كانت هذه اللحظات الساحرة، تحمل في طياتها عبق التاريخ وروح المغامرة، لتغمر لحبيب ورفاقه بإحساس من الانبهار والتشويق.

ومع توغل الثلاثة داخل المخيم، لاحظوا أن الناس يتدفقون بكثرة نحو وسطه. تساءل قائد العصبة، بصوت منخفض وقلق:

"إلى أين يتوجهون؟"

أراد لحبيب أن يجيب، ولكن فجأة قاطعه صوت من خلفه يقول:

"أنتم لستم من هنا."

صُعق لحبيب لسماع تلك الكلمات، فتوقف عن المشي وأمسك بسرعة بمقبض خنجره المخفي في حزامه. لكنه سرعان ما هدأ عندما رأى إشارة خفية من قائده المختار.

في آن واحد، التفت الثلاثة إلى الخلف. وتفاجأوا برؤية شاب وسيم يرتدي لباساً فاخراً، يقف بقامة طويلة، وقد شبك ساعديه على صدره وابتسامة انتصار ترتسم على وجهه.

ابتسم له المختار ببرود وقال:

"عفواً؟"

الشاب، بنظرة تملؤها الثقة، أجاب:

"أعرف كل من في هذا المخيم، ولم أركم من قبل. من أنتم وماذا تفعلون هنا؟"

رد المختار بهدوء، محاولاً تهدئة الأمور:

"نحن مجرد مسافرين، جئنا لنحضر عرس القبيلة. سمعنا أنه مميز جداً، وهذا واضح من عدد الناس المتجمعين هنا."

كانت عيون الشاب تلمع بالذكاء، وهو يتفحصهم بدقة. ثم قال:

"أهلاً بكم في مخيمنا. أنا أدعى العربي."

أجاب لحبيب والانبساط يعلو ملامحه:

"شكراً لك. أنا أدعى لحبيب، وهذا صديقي المختار، والذي يليه اسمه سعيد."

ابتسم العربي وقال:

"إذن أنتم من سكان الجنوب؟"

لاحظ المختار مدى فطنته، فأجاب:

"هذا صحيح. نحن ننتمي لقبيلة أولاد بنّوه."

"أولاد بنّوه، أنتم تعيشون قرب البحر؟"

قال العربي متسائلاً.

"بالضبط"،

قال المختار مؤكداً.

أراد العربي أن يسأل مجدداً، لكن لحبيب قاطعه محاولاً تجنب المزيد من تساؤلاته:

"إذاً، هل يمكنك أن ترشدنا في هذا المخيم الكبير؟"

ابتسم العربي وقال:

"بالطبع، فلنسِر إلى وسط المخيم."

بدأ الثلاثة في السير خلف العربي، الذي كان يتحرك بخطوات واثقة بين الأزقة الضيقة والخيام المتراصة. كانت الحركة في المخيم تزداد حيوية مع اقترابهم من المركز، حيث يتجمع الناس بأعداد أكبر، وأصوات الضحك والمحادثات تختلط في الجو.

كان العربي يسرد لهم من تاريخ القبيلة وكيف ظهرت عادة العرس الكبير، الذي يتكرر كل سبع سنوات. كان يوضح كيف أن هذه العادة تميز القبيلة عن غيرها، وتساهم في توطيد العلاقات بين الافخاظ وتوحيدهم.

لم يدم المسير طويلاً حتى وصلوا إلى منتصف المخيم. لم يكن هناك خيام، بل ساحة واسعة تجمع فيها مئات الأشخاص حول نتوء صخري مسطح بارتفاع رجل بالغ. فوق هذا النتوء، وقف بعض الأشخاص يتحدثون بينما البقية يراقبونهم باهتمام.

لحبيب، الذي لم يستطع كتمان فضوله، قال للعربي الذي كان يقف أمامهم بهدوء، مشبكاً يديه خلف ظهره:

"ماذا يجري هنا؟"

ابتسم العربي وقال وهو يشير نحو الصخرة الكبيرة:

"هنا يتجمع الناس لحضور عقود الزواج التي تُعقد فوق تلك الصخرة الكبيرة. إنها لحظة مميزة يتشاركها الجميع."

تابع المختار بسؤاله:

"كل هؤلاء الناس هنا من أجل عقد زواج واحد؟"

هز العربي رأسه نافياً:

"ليس زواجاً واحداً فقط. اليوم، سنشهد عدة عقود زواج. وكل من يعقد لهم في هذا الأسبوع سيقام لهم حفل واحد وكبير في نهاية الأسبوع."

أضاف أحد الرفاق، وقد بدت عليه الدهشة:

"ماذا عن المهور هل هي غالية. وكيف تقومون بعقد الزواج؟"

أجاب العربي بابتسامة:

"بالطبع هي غالية، بنات أولاد شداد عزيزات، أما بالنسبة للعقد فكل زوجين يصعدان إلى تلك الصخرة، يتبادلان العهود أمام الجميع، ويبدؤون حياتهم المشتركة على بركة الله."

نظـر لحبيـب حولـه، مستشـعراً الأجـواء الحماسـية والـدفء الاجتماعي الذي يملأ المكان. كانت هذه اللحظـة تعكس روح الوحدة والتلاحم التي تميز هذه القبيلة.

إلـى جانـب لحبيـب ورفاقـه، وقـف العربـي بقوامـه الرشـيق، ترتسم ابتسامة عريضـة علـى محيـاه الوسـيم. كانـت الشـمس تسطع بأشعتها الدافئـة، تضـفي علـى الوجـوه إشـراقة خاصـة وتبرز جمال الطبيعة المحيطة.

وقف العربي ينظر باستمتاع إلـى مـدى انـدهاش الثلاثـة مـن المشهد. أثناء تلك اللحظة الفريدة، بـدأ يطـالع المكـان والنـاس بشـغف واهتمـام. كـان الجميـع مسـتغرقين فـي أحـاديثهم وضـحكاتهم، بينمـا تتحـرك أوراق الأشـجار بخفـة مـع نسـيم النهار اللطيف.

فجأة، توقف العربي واشتد تركيزه في أحد الاتجاهـات، حـين لمحت عيناه وجه زوجته الفاتنة هدى بين الناس. كانـت تقـف بعيداً، تضحك وتبتسم بشـغف، وضـوء الشـمس يضـفي علـى وجهها بريقاً خاصاً.

شـعر العربـي بسـعادة غـامرة تغمـر قلبـه عنـد رؤيتهـا، لكـن سرعان ما تلاشت هذه السعادة لتحل محلها مشاعر متضاربة عندما لاحـظ رجـلاً يقـف معهـا. لـم يـتمكن مـن تحديـد هويـة الرجل، لكن مجرد رؤيتهما معاً كان كافياً لإشعال نار الغيـرة في قلبه.

بدأ يشعر بضغط شديد في صدره، وتسارعت دقات قلبه بعنف، وكأنها تسرع لتسبق الزمن.

تحولت ملامح العربي من فرحة عارمة إلى غضب ثائر وغيرة هائجة. تلبد وجهه بالحزن، واشتعلت عيناه بنظرة يملؤها الغضب والألم. أراد أن ينطلق نحو زوجته ليواجهها، لكن قدماه تجمدتا في مكانهما عندما سمع نداء المختار خلفه.

التفت العربي بسرعة، وعيناه تلمعان بنظرة حادة وبائسة. كان يقف في تلك اللحظة بين عالمين؛ عالم الحب والحنين، وعالم الشك والغيرة. تلك النظرة في عينيه كانت تعكس انكسار قلبه وتحوله إلى شظايا متناثرة في الهواء النهاري الحار.

رآه لحبيب وشعر أن هناك تغيراً حاداً أصاب مزاجه. لم يطل الأمر حتى اندفعت كلمات المختار نحو العربي:

"سيد العربي، هل أنت بخير؟"

التفت العربي مرة أخرى نحو مكان زوجته هدى، لكنه لم يتمكن من رؤيتها. تخلله شعور بالمرارة والحزن، وكأنما انطفأت شمعة الأمل التي أضاءت قلبه للحظة قصيرة. أعاد نظره نحو الثلاثة وهو يقول ببرود في صوته:

"أنا بخير."

قابله المختار بابتسامة خفيفة ثم قال:

"الحمد لله، يبدو أننا قد وجدنا مضيفنا."

نظر العربي فلاحظ أن هناك رجلاً عجوزاً يقف برفقتهم. لم يطل الانتظار حتى جاءت كلمات لحبيب وهو يتقدم خطوة نحو العربي:

"نحن نشكرك على هذه الجولة الجميلة في مخيمكم."

بابتسامة خفيفة نطق العربي وهو يلوح بيده:

"ليس ذلك بشيء يستحق الشكر. سررت بالتعرف عليكم."

أومأ الثلاثة بالشكر للعربي، ثم تفرقت طرقهم بعد لحظات قصيرة؛ انطلق لحبيب ورفاقه في سبيلهم، بينما بقي العربي يجوب المخيم بعينيه، يبحر بين الجموع المحتفلة.

كانت الوجوه حوله مبتهجة، والأغاني والأهازيج تتصاعد في الأجواء، لكنه كان مشغولاً بالبحث عن وجه زوجته الذي غاب كما تغيب النجوم في النهار.

بينما كان يسير بحذر بين الحشود، شعر بيد تلمس كتفه. استدار بسرعة، ليجد صديقه مولاي يقف أمامه بابتسامة عريضة، قائلاً:

"أين كنت؟ بحثنا عنك طويلاً."

رفع العربي حاجبيه بتساؤل، قائلاً بلهجة حذرة:

"أنتم؟"

ابتسم مولاي وتنحى قليلاً ليكشف عن هدى، زوجة العربي، التي كانت تقف خلفه تنظر إلى الأرض، تداعب أطراف ثوبها بتوتر. كانت ملامحها جامدة، ويدها المرتعشة تفضح مشاعرها المضطربة.

العربي، وقد غمرته المفاجأة، قال بتلعثم:

"هدى! ماذا تفعلان معاً؟"

ضحك مولاي بلهجة ساخرة، قائلاً:

"أيها الأحمق، لماذا لم تخبرني أن زوجتك بهذا القدر من الجمال؟"

وقبل أن يرد العربي، همست هدى بصوت غاضب لمولاي:

"ربما لأنه لا يهتم بما يكفي ليخبرك."

حل صمت ثقيل بين الثلاثة، كانت الكلمات تتصارع في صدر العربي، ولكنه بقي صامتاً، عيناه معلقتان على زوجته، ومشاعر الأسى والخذلان تتصارع داخله. مولاي، محاولاً كسر التوتر بضحكته المعتادة، قال مازحاً:

"يبدو أنكما في خضم شجار عظيم. ما رأيكما بأن نذهب إلى خيمتي وننهي هذا الخلاف."

هدى، وقد اشتدّ توترها، نفضت كُمّها بعصبية قبل أن تلتفت قائلة بحدة:

"شكراً لك، سيد مولاي. لكنني لا أريد ذلك."

ثم انصرفت بسرعة، متجاهلة نظرات العربي. حاول مولاي إيقافها، لكنه شعر بيد العربي تمسك بمعصمه، وقال بصوت منخفض مثقل بالألم:

"دعها... لن تسمع لأحد الآن."

*****

هو بدل منها

على دربٍ آخر، كان لحبيب يسير بصمتٍ ثقيلٍ برفقة المختار وسعيد، بينما المستضيف يقودهم بخطوات واثقة نحو وجهته المحددة. كان الهواء الليلي مشبعاً بالسرية، لا صوت يُسمع سوى همسات الريح بين الخيام المتراصة، وكأن الظلام ذاته يشارك في المؤامرة.

بعد لحظات، وصلوا إلى خيمة عتيقة في الأطراف الشرقية للمخيم، منعزلة بعض الشيء عن صخب الاحتفالات. دخلوها بخطوات حذرة، لتقع أنظارهم على الرجلين الآخرين من العصبة، كانا جالسين في انتظارهم.

جلس الجميع في دائرة ضيقة، والإضاءة الخافتة المنبعثة من نار صغيرة أمام الخيمة تلقي بظلالها على الجدران القماشية المهترئة.

اختراق الصمت كان مهمّة المختار، الذي بادر بالكلام بحدة، موجّهاً حديثه للمضيف:

"مالك، لا وقت لدينا لنضيعه. أخبرنا بما لديك!"

رفع مالك عينيه بتوترٍ واضح، ثم قال بتردد:

"سيدي... هناك أخبار سيئة، وأخرى أسوأ."

قبل أن يضيف كلمة، قاطعه لحبيب بنبرة مستعجلة وقد علا صوته قليلاً:

"أخبار سيئة؟ ماذا تعني؟"

نظر مالك إلى لحبيب، ثم أخذ نفساً عميقاً محاولاً استجماع شجاعته:

"سيدي لحبيب، كما أخبرتك في الرسالة، رأيت السيدة رحمة في اليوم الأول لوصول فخظ الكمداني إلى المخيم... ولكن..."

توقف مالك، وعيناه تتحركان بخوفٍ ظاهر بين الجالسين.

اندفع المختار بقلق مكبوت، قائلاً:

"أكمل، ما بك؟"

بلع مالك ريقه قبل أن يتابع بصوتٍ مرتجف:

"السيدة رحمة... توفيت في اليوم الثاني بعد وصولها."

ساد الخيمة صمت قاتل. تجمدت عيونهم، والخيبة تجري فيهم كما يجري الدم في العروق. كانوا جميعاً على يقين أن كل أمانيهم في إحضار رحمة المفقودة قد تحطمت إلى الأبد.

المختار، وقد أصابه الذهول، تمتم بصدمة:

"ماتت؟ ماذا تقصد؟ بعد سنوات من البحث والعناء، نجدها جثة!"

أتبع مالك بلهفة، محاولاً الإمساك بأي أمل:

"لكن يا سيدي، هناك أمر آخر..."

ساد الصمت على الجميع، حيث كان لحبيب والمختار يستندان على مرفقيهما، وجوههم مرهقة من الخيبة. أما سعيد، الذي لم يستطع كبح فضوله، سأل بنبرة تساؤل مشوبة بالحذر:

"عن أي أمر آخر تتحدث؟"

أجاب مالك وهو يشير بيده محاولاً التوضيح:

"السيدة رحمة لم تأتِ وحدها. لقد جلبت معها شابا صغيراً... إنه ابنها."

في تلك اللحظة، انتفض المختار من مكانه، وقام بخطوة سريعة نحو مالك، ممسكاً بياقته بقوة وهو يهزّه قليلاً:

"رحمة لها ولد؟!"

أجاب مالك وهو يشعر بالخوف يتسلل إلى صوته:

"نعم، لها ولد."

نبرة المختار تحولت من الغضب إلى اللهفة، عيناه مفتوحتان على اتساعهما:

"وأين هو؟"

أجاب مالك بقلق، متوتراً من ردة فعلهم:

"تلك هي المشكلة... لقد اختفى. إنه مفقود منذ سبعة أيام."

ضحك لحبيب بمرارة، وضرب الأرض بقبضته قائلاً بغضب مكتوم:

"هل تسخر منا، يا مالك؟"

مالك، متلعثماً وعيناه تجولان حول وجوههم:

"لا... بالطبع لا. الولد كان يشارك في بطولة الشجاعة، لكنه لم يعد من الجولة الأخيرة في السباق إلى وادي لحنوك."

ساد الصمت للحظات، ثم كسر سعيد الجمود بضحكة ساخرة، وهو يهز رأسه بخيبة:

"إذن هذا هو الخبر الأكثر سوءاً..."

تنهد المختار وهو يجلس منهاراً على الأرض، يضع يده على رأسه بتعب، قائلاً:

"لم نستطع العثور على امرأة مفقودة... كيف سنجد رجلاً الآن؟"

ضحك الجميع بشكل متوتر على كلمات المختار، ثم جلس لحبيب بجدية، ووجه نظره إلى المختار، قائلاً:

"حسناً إذا، الفتى هو هدفنا الجديد، يا سيد مختار."

حدق المختار إلى لحبيب بنظرة حادة، وقد عقد ذراعيه على صدره، وأجاب بصوت حازم:

"تماماً."

أضاف مالك، وهو يتلاعب بيديه بتوتر:

"هناك شيء غريب. السيدة رحمة وابنها كانا مجرد عبدين لدى شيخ فخظ الكمداني. ولكن بعد اختفاء الصبي، أظهر الشيخ الشيباني اهتماماً كبيراً في البحث عنه. منذ يوم اختفائه، عمليات البحث متواصلة من قبل رجاله ورجال الأمير، ولكنهم حتى الآن لم يجدوا له أي أثر، كأن الأرض قد ابتلعته."

قام المختار من مكانه، وجعل يمرر يديه على جانبيه وهو يفكر بعمق، ثم قال بصوتٍ عميق:

"الأمر واضح. ابن السيدة رحمة هو ابن الشيخ الشيباني. وإلا، ما كان ليبذل كل هذا الجهد للعثور على عبد؟"

قال لحبيب بتأكيد:

"كلامك صحيح."

سعيد، وقد بدت عليه علامات الاستفهام والقلق، سأل:

"إذاً، ما هي خطتنا الآن؟"

توقف المختار، ونظر إليهم بثقة وهو يشد قبضتيه، قائلاً:

"خطتنا واضحة أيضاً. علينا إيجاد الفتى قبل أن يجده والده."

حدق لحبيب في سيده المختار بصمت، وشد قبضتيه بتركيز، وهو يتطلع لما هو قادم، وكأنه يستعد لمواجهة تحديات جديدة.

*****

جرح لابد منه

اكتسى الليل عباءته الثقيلة فوق مخيم قبيلة أولاد شداد. السماء فوقهم مظلمة تتخللها نجوم بعيدة، بينما ألسنة اللهب من النيران المشتعلة في وسط المخيم تلقي بظلالها المتراقصة على الوجوه.

وسط صخب الغناء والأهازيج التي لم تهدأ منذ بداية الاحتفال، كانت الأقدام تهبط على الأرض بتتابع كأنها تصفق هي الأخرى للموسيقى. الرجال والنساء يتحركون بحرية، وكأن الليل نفسه مشارك في العرس. الأطفال يصرخون ويلعبون، بينما كانت الأحاديث تملأ الأجواء بين الحضور.

هناك في إحدى الخيام الفخمة التي تفوح منها رائحة العطر والبخور، جلس مولاي والعربي مع ثلاث جوارٍ جميلات، يتمايلن برشاقة حولهم.

على طرف الخيمة كان يجلس صديقهما شيخنه، الذي بدا هادئاً، لكنه كان يشاهد كل شيء بعيون متقدة. كان يراقب بتأنٍ، وبين لحظة وأخرى، كان يرفع كأسه إلى شفتيه ببطء، دون أن يفوته شيء مما يجري.

مولاي، وقد أسند ظهره إلى وسادة مخملية، أطلق ضحكة ساخرة، ووجه نظره نحو العربي وقال:

"أخبرني يا عربي، هل تشعر بأن الحياة تزداد جمالاً عندما تكون محاطاً بما يجعل الدم يغلي في عروقك؟"

دنيا الجالسة بجانبه، وضعت يدها بلطف على كتفه، وقالت بنبرة مفعمة بالإغراء:

"الحياة يا سيدي، تصبح أكثر جمالاً عندما تتذوق طعم ما هو ممنوع ومرغوب؟"

ثم اقتربت منه أكثر، حتى لمست أنفاسها خده، وهمست:

"كل ليلة تحمل سراً جديداً... وأنت الليلة، يا سيدي مولاي، أمامك سر لم يكتشف بعد."

مولاي، وهو يشعر بتزايد الإثارة، نظر إلى العربي وقال وهو يغمز بعينه:

"أرأيت يا صديقي؟ المتعة في يدك، فقط عليك أن تعرف كيف تمسك بها فقط."

العربي ضحك بخفوت، وقبل أن يرد، تدخلت رزا، التي كانت تلاعب دفاً صغيراً، وقالت بنبرة مليئة بالإغواء:

"ولكن، سيدي مولاي، المتعة لا تُمسك... إنها تسري في جسدك مثل النار. هل شعرت يوماً بشيء يلهب قلبك دون أن تستطيع إيقافه؟"

شيخنه، الذي كان يتابع الحديث بصمت، ابتسم بخفة وقال:

"إن العربي هذا دائم التفكير. ربما عليه أن يتعلم أن بعض الأسئلة لا تحتاج إلى إجابة، وبعض الأبواب لا يجب فتحها، أليس كذلك؟"

مولاي ضحك بصوت عالٍ، ثم نظر إلى شيخنه وقال:

"صديقي شيخنه، أنت كعادتك حكيم، ولكن ألا ترى أن الأبواب المغلقة هي التي تثير الفضول أكثر؟"

ثم نظر إلى الجواري وقال:

"وها هن هؤلاء الجميلات، يعلمننا كل ليلة درساً جديداً في المتعة والغموض."

الجارية الثالثة حلا، وقد كانت تراقب العربي بعيون ثعلبية، اقتربت منه ببطء وجلست بجانبه، همست في أذنه:

"سيدي العربي، نحن هنا لا نكشف أسرارنا بسهولة، ولكن... في الليل الطويل هذا، كل شيء ممكن... إذا كنت تملك الجرأة لتطلب."

العربي ابتسم، لكنه ظل متحفظاً، وقال بصوت هادئ:

"أحياناً السر نفسه هو المتعة، وليس اكتشافه."

شيخنه، وهو يراقب الحديث، قال بنبرة ماكرة:

"يا عربي، مولاي قد تعلّم من هذه الليلة أكثر مما تتصور. ربما عليك أن تتعلم منه."

مولاي، وهو يتمايل برأسه متفقاً، قال:

"نعم، يا شيخنه، فالمتعة تكمن في قدرتك على الانغماس دون تفكير... فما رأيك يا عربي؟ هل تخاطر أم تظل تفكر؟"

الجواري ضحكن بصوت عالٍ، وهن يتبادلن النظرات الساخرة والإغراء مع مولاي والعربي، بينما ظل شيخنه

يراقب بابتسامة غامضة، وكأن له في تلك الليلة دوراً خفياً لم يكشف بعد.

استمر الجو المشحون بالإغواء والحديث المثير داخل الخيمة، والجواري يضفن مزيداً من الإثارة بنظراتهن وهمساتهن المتبادلة. العربي بدأ يشعر بشيء من الحيرة، وكأن هناك شيئاً داخله يناقض هذا الجو المفعم بالرغبة والتحدي، بينما كان مولاي يبدو مستمتعاً تماماً باللحظة.

حلا الجالسة بجانب العربي وضعت يدها على صدره وقالت بصوت هادئ وعميق:

"أشعر أن قلبك يخفق بقوة، لماذا تقاوم؟ كل شيء هنا مسموح، ولا أحد سيحكم عليك."

العربي ابتسم بخفوت وأزاح يدها بلطف وقال:

"بعض الأشياء تستحق الانتظار."

شيخنه، الذي ظل صامتاً لبعض الوقت يراقب الحوار، تنحنح ونهض ببطء:

"أظن أن عليّ المغادرة الآن، لدي أمور يجب أن أنجزها الليلة."

قالها وهو يضبط عباءته ويرفع نظره نحو العربي ومولاي.

مولاي نظر إليه مستغرباً وقال:

"أمور؟ في هذا الوقت المتأخر من الليل؟ ألا تريد أن تشاركنا في متعتنا قليلاً قبل أن تذهب؟"

شيخنه ابتسم ابتسامة خفيفة وقال:

"يا مولاي، أنا أشارككم المتعة دائماً... لكن هناك نوعاً آخر من المتعة ينتظرني الليلة."

ألقى نظرة غامضة على العربي وأضاف:

"الليل طويل يا صديقي، ولا تنسَ أن القرارات تُتخذ في اللحظات التي لا نتوقعها."

ثم ألقى نظرة أخيرة على الجواري اللاتي تمايلن بغنج وهن يبتسمن له، وكأنهن يدعونه للبقاء، لكنه لم يستجب. تقدم بضع خطوات نحو باب الخيمة، وأدار رأسه نحو مولاي والعربي وقال:

"سأراكم لاحقاً، حافظوا على الأسرار الليلة."

ثم غادر الخيمة بخطوات ثابتة، وترك خلفه موجة من التساؤلات حول ماهية انشغاله الحقيقي.

بمجرد أن غادر شيخنه الخيمة، نظر مولاي إلى الجواري بابتسامة ودودة، وقال بهدوء:

"يا جميلات، لمَ لا تذهبن للاستمتاع قليلاً بأجواء الاحتفال في الخارج؟ يبدو أن أصوات الموسيقى والرقص قد بلغت ذروتها الليلة، ستكون فرصة لتجربة متعة الحفل."

الجواري نظرن لبعضهن البعض بابتسامات ماكرة قبل أن يقفن بتمايل، وقالت دنيا بصوت ناعم:

"كما تريد يا مولاي، لكننا لن نبتعد كثيراً."

ضحك مولاي وأجاب:

"أعلم ذلك، فقط احرصن على ألا تفتنَّ كل من يراكن، فأنا أحتاجكن في حالة جيدة عندما تعُدن."

ضحكت الجواري وخرجن واحدة تلو الأخرى، تاركات الخيمة تتنفس براحة بعد زوال الثقل المشحون بالرغبة والإغواء.

بقي مولاي والعربي وحدهما في الخيمة، لحظة هدوء ثقيلة خيمت على المكان. كان العربي يبدو شارداً، متردداً في الحديث عما يدور في ذهنه. لكن مولاي، بشخصيته الحازمة، لم يترك الصمت يطول. جلس إلى جانبه، وأمسك بكتفه قائلاً:

"أعرف ما الذي يجول في خاطرك يا صديقي. لا يمكن أن أتجاهل كيف كنت تبدو الليلة."

رفع العربي رأسه قليلاً، ثم أعاد عينيه إلى الأسفل، كأنه يبحث عن كلمات مناسبة. أخيراً، قال بصوت خافت ومكسور:

"هي لا تثق بي بعد الآن... ولا ألومها."

ابتسم مولاي ابتسامة متفهمة، لكنه حافظ على نبرته الجادة:

"وأنت تعترف بذلك؟ خياناتك المتكررة يا صديقي... لقد وضعت نفسك في موقف صعب، وما يحدث الآن هو نتيجة طبيعية."

هز العربي رأسه بتذمر وقال:

"أعلم. كلما وعدتها أني سأتغير، أعود لنفس الخطأ. وكأنني لا أستطيع التوقف. وهي... لا يمكنها أن تسامحني."

اقترب مولاي إلى جواره، ووضع يده على كتفه قائلاً بهدوء:

"النساء يا عربي... يقدرن الوفاء أكثر من أي شيء آخر. وكنت تلعب بالنار طوال الوقت. لكن هناك دائماً فرصة لإصلاح الأمور، إذا كنت مستعداً لبذل الجهد."

أشاح العربي بنظره بعيداً وقال بمرارة:

"لقد سئمت من الوعود الفارغة. سئمت من محاولاتي الفاشلة في إصلاح ما كسرته. كلما حاولت، أفسد الأمور أكثر."

ضحك مولاي قليلاً وهو يمسح على كتف صاحبه، ثم قال:

"الوعود وحدها لا تكفي. يجب أن ترى منك شيئاً ملموساً، شيئاً يثبت أنك جاد هذه المرة. وأنت تعرف جيداً ما أقصده. يجب أن تترك كل النساء الأخريات خلفك."

رفع العربي عينيه أخيراً ونظر إلى مولاي بارتباك:

"لكن... ماذا لو فات الأوان؟"

أجاب مولاي بجدية:

"لم يفت الأوان بعد، طالما أن هدى ما زالت معك. لكن عليك أن تتوقف فوراً. لا مجال للمزيد من الأخطاء. إذا كنت تريد أن تستعيد ثقتها، عليك أن تتخلى عن هذه الحياة العبثية. وتثبت لها أنك تغيرت بالفعل."

العربي تنهد بعمق، وكأنه يحمل ثقل العالم على صدره، ثم قال:

"لا أعرف إن كنت أستطيع فعل ذلك."

ابتسم مولاي بتشجيع وقال:

"أنت تستطيع يا صديقي، لكن يجب أن تريد ذلك حقاً. وإذا أردت النصيحة... ابحث عن طريقة لتفاجئها، بشيء يعكس ندمك وصدقك. النساء يعشقن الإيماءات الصادقة، أكثر من الكلام."

جلس العربي بصمت، مستغرقاً في الأفكار. كانت نصائح مولاي تدور في ذهنه، لكنها لم تكن بسيطة التنفيذ.

ابتسم العربي قليلاً بعدما فكر في كلمات مولاي، ثم وقف فجأة بنشاط غير متوقع وقال:

"أظن أنني سأذهب الآن. سأذهب إلى هدى. يجب أن أراها، حتى لو كان الوقت متأخراً. أريد أن أبدأ الآن، لا يمكنني الانتظار حتى الصباح."

نظر مولاي إلى صديقه بدهشة ممزوجة ببعض التسلية، وقال ضاحكاً بسخرية:

"تذهب الآن؟ في هذا الوقت؟ قد لا تكون في مزاج جيد لاستقبالك يا صديقي... لماذا لا تبيت هنا الليلة؟ أعدك، سأقدم لك واحدة من الجواري، حتى تستريح قليلاً قبل أن تواجه هدى."

توقف العربي عن الحركة للحظة، وحدّق في مولاي بغضب متصاعد. عيناه احمرّتا من شدة الانفعال، ثم صرخ:

"مولاي! لا تتحدث هكذا. لقد انتهيت فعلاً من كل هذا. أنا جاد هذه المرة. لن أخونها مجدداً، لا مع جارية ولا غيرها!"

ارتفعت حواجب مولاي ببطء، ثم انفجر في ضحكة عالية وهو يصفق على كتف العربي بقوة قائلاً:

"كان ذلك مجرد اختبار يا صديقي. أردت أن أرى مدى جديتك، وها أنت أثبت لي أنك فعلاً تريد تغيير حياتك. أحسنت! هيا، اذهب إلى هدى، وأظهر لها هذا الصدق."

تنفس العربي بعمق محاولاً تهدئة غضبه، لكنه سرعان ما تراجع بوجه أكثر هدوءً، وقال:

"لن أفشل هذه المرة. سأثبت لها أنني تغيرت."

ضحك مولاي مرة أخرى وقال:

"حسناً، أتمنى لك التوفيق، لكن احذر... النساء لا تنسى بسهولة، عليك أن تكون أكثر صبراً من أي وقت مضى."

بينما يخطو العربي خارجاً من خيمة مولاي، كان الليل يلف المخيم في هدوء، وتبعثرت أضواء النيران القليلة في أرجاء المخيم، لتغمر الأجواء بألوان دافئة ومظلمة. الهواء البارد لم يكن كافياً لتهدئة حماسه واضطرابه المتصاعد، فقد كانت أفكاره تتسابق مع خطواته.

تسللت قدماه عبر الأزقة الضيقة للمخيم، حيث كانت الظلال ترقص على جدران الخيام، محاكية ألمه الداخلي وحماسه القوي. تأرجح بين الأمل والخوف وهو يمر عبر الزقاق المظلم، يتخيل اللحظات التي سيقضيها مع هدى، والأشياء التي سيقولها لها.

كان دماغه مليء بمشاهد ومشاعر متضاربة، فبينما كان يشعر بالسعادة لرؤيتها، كان هناك قلق كبير من رد فعلها.

تجاوز العربي الخيام الكبيرة المضيئة بألوان احتفالية، وتقدم نحو الجهة المخصصة لخيام فخظ أولاد سيدحمد، حيث كان يتوقع أن يجد خيمة هدى. ومع اقترابه من خيمة زوجته، تراجع حماسه فجأة عندما لمح ظلاً مريباً يقف أمام مدخل الخيمة.

تجمد العربي في مكانه، قلبه يدق بسرعة، ويده ترتجف قليلاً. صرخات الفرح من الحفل تبدو بعيدة الآن، وكأن كل شيء تحول إلى صمت مطبق حوله.

خطا بخطوات هادئة نحو أحد الخيام القريبة، واختبأ في ظلها، مستنداً إلى جدارها بجسده، يحاول التسلل بهدوء حتى يستطيع رؤية ما يحدث دون أن يُكتشف.

من موقعه المظلم، كان العربي يراقب بقلق شديد، عينيه تتبعان الرجل الذي يقف أمام خيمة زوجته. لم يكن يستطيع تمييز ملامحه بوضوح من هذه المسافة، لكن لغة جسده توحي بأنه كان في حالة انتظار.

بدأت الشكوك والقلق يتسربان إلى أعماق العربي، مما جعله يلهث ببطء، وكأنه يحاول السيطرة على موجة من الفزع المتصاعد.

كل حركة من الرجل أمام الخيمة كانت تتجسد ككابوس في عقل العربي. وراحت خيالاته تتجول بين الاحتمالات الأسوأ،

من خيانة إلى تهديد محتمل. عرق بارد يتصبب من جبينه وهو يحاول التفكير في خطوته التالية.

فجأة، انفصلت الستارة الخارجية للخيمة، وظهرت هدى بملابس النوم، تعبير وجهها يحمل مشاعر مختلطة من السعادة والقلق. ترددت لحظة قصيرة، ثم اندفعت مباشرة نحو الرجل.

فاجأ العربي الموقف تماماً. رأى هدى تتشبث بالرجُل، وهو يعانقها بحرارة، ثم يطبع قبلة طويلة على شفتيها. كان المشهد مليئاً بالحسية والحميمية، مما جعل العربي يشعر وكأن قلبه يتفجر من الألم.

تراخت عضلاته، وكانت نظراته مشدودة نحو المشهد غير مصدق. هدى كانت تظهر بوضوح مشاعر قوية وعاطفية تجاه هذا الرجل، وعينيها تتلألأ بالحب الذي لم يكن متوقعاً أن تعبر عنه.

تبادلا القبلات بحب عميق، بينما العربي يتجمد في مكانه، والشعور بالخيانة يزداد حدة. وبعد لحظات، انفصل الرجل عن هدى وأخذ يودعها بابتسامة، ثم غادر سريعاً. سار ببطء مبتعدا عن خيمتها، وتخطى مباشرة بجانب العربي الذي اختبأ في الظلام، دون أن يلاحظ وجوده.

عندما ابتعد الرجل قليلاً، تمكن العربي من رؤية ملامحه بوضوح في ضوء خافت من النيران القريبة، لتتجسد المفاجأة الأكبر. كان الرجل هو شيخنه، صديقه العزيز، الذي لم يتوقع العربي أن يكون خائناً بهذا الشكل. صدمة قوية ارتجت في قلب العربي، واندفعت دموع الغضب والحزن إلى عينيه.

أنفاسه كادت تخنقه، وكأن الهواء نفسه يرفض مساعدته على التنفس. كان وجه شيخنه هادئاً، غير واعٍ بالخنجر الذي غرسه للتو في ظهر العربي. في تلك اللحظة، لم يكن مجرد صديق يمر، بل كان خائناً يدهسه بلا رحمة.

تحول نظره نحو خيمتها. رآها واقفة عند المدخل، تبتسم بخجل تودع حبيباً خائنا. عيناها تشعان بشيء لم يره العربي فيها من قبل. هل كان هذا حباً؟ أم احتقاراً؟ شعر كأن روحه تنكسر، قطعةً تلو الأخرى، بينما يراقبها وهي تبتعد عن خطه الرفيع من الولاء والثقة.

تركه شيخنه وهدى مع خيانتهما المؤلمة له، وتحولت الصدمة إلى حريق يلتهم أعماقه. حاول التحرك، لكن قدميه خانتاه. أراد أن يصرخ، أن يواجههما، أن يسأل لماذا؟ ولكن كل ما خرج منه كان تنهيدة ثقيلة تلاها دمع ساكن انساب على وجنته.

خطى ببطء خارج المخيم، خطوات ثقيلة كأنه يحمل العالم على كتفيه. الأصوات من حوله تلاشت تدريجياً، وكأن الكون

كله تآمر ليتركه في عزلة مطلقة. الرمال تحته بدت وكأنها تغوص مع كل خطوة، والرياح تدفعه بعيداً عن خيمتها كما لو كانت تحاول حمايته من العودة.

وصل إلى مكان منعزل بين الكثبان الرملية. جلس هناك، خائر القوى، ودفع بيديه حفنة من الرمل التي انساب منها كما انساب شعوره بالثقة والأمان. "لماذا؟" سأل نفسه بصوت خافت، وكأن السؤال يهرب منه أيضاً.

كانت النجوم تلمع في السماء، لكنها بدت له بعيدة وباردة. رفع رأسه نحوها، عينيه تلمعان بالدموع، وبدأ يتساءل:

"هل هناك شيء أكبر يحاك ضدي؟ أم أنني كنت أعمى طوال الوقت؟"

أخذ نفساً عميقاً، وشعر كأن الهواء يثقل عليه بدلاً من أن يخفف. وقف أخيراً، وعيناه تحدقان في الأفق البعيد. كانت تلك اللحظة بداية لتحول جديد في حياته، ولكن بأي اتجاه؟ لم يكن يعلم.

بعد مضي لحظات قرر العربي التوجه إلى مكان أبعد في الظلام، ولكنه توقّف فجأة عندما سمع أصواتاً خافتة تقترب. اختلطت مشاعره بالقلق والفضول، بينما كانت تلك الأصوات تأتي من جهة غير متوقعة.

لم يكن يدري ما الذي ينتظره، ولكن الإحساس بأن شيئاً ما على وشك أن يحدث جعل قلبه يخفق بسرعة، متسائلاً عن ماهية الصوت.

فجأة، في هدوء الليل العميق، لاحظ العربي ثلاثة ظلال تتسلل نحو المخيم. كانوا يسيرون بخفة وحذر، وكأنهم يتجنبون الأنظار. تجمد العربي في مكانه للحظة، وشعر بأن مصائبه لن تنتهي هذه الليلة. ضغط على أنفاسه وسحب نفسه خلف أحد الخيام، يراقبهم عن كثب.

تقدم الأشخاص الثلاثة إلى داخل المخيم، حيث اختفوا بين الخيام المتراصة. تابع العربي حركتهم بهدوء، وهو يتجنب الكشف عن نفسه، متسللاً في ظلال الليل كالشبح. كانت خطواتهم خفيفة، وكان من الواضح أنهم يعرفون كيفية التسلل دون أن يثيروا الانتباه.

توقفوا فجأة أمام إحدى الخيام. فخرج لهم شخصان يرتديان ملابس داكنة. كانوا يتحدثون بصوت خافت، ولكن العربي بتركيز حاول الاقتراب للاستماع. انحنى في ظل إحدى الخيام، محاولاً سماع ما يدور بينهم.

بفزع، اكتشف العربي أنهم كانوا يتبادلوا البنادق، حيث سحب أحدهم بندقية من تحت عباءته وناولها للآخر الذي كان على مدخل الخيمة. تزايدت حدة القلق في قلب العربي، وعقله كان يعمل بسرعة على التفكير فيما يجب فعله.

بدأ يتراجع بهدوء، محاولاً الابتعاد عن المكان قبل أن يتم كشفه، ولكن فجأة شعر بشيء بارد يلامس رقبته. تجمد في مكانه، وشعر بأصابع قوية تمسكه من الخلف. همس له شخص في أذنه بصوت منخفض وتهديدي:

"إذا تحركت، سأنحر عنقك الآن."

*****

الخمسة

في الأطراف الشرقية من المخيم، حيث الليل يغمر الأرض في سكون ثقيل، كانت الخيام المتناثرة تبدو كأشباح صامتة وسط الظلام. الرياح تحمل معها رملاً دقيقاً يلفح الوجوه، بينما تتسلل همساتها بين الأوتاد والحبال، وكأنها تحاول سرد حكاياتٍ منسية.

العربي كان هناك، يقف بحذر على الرمال الجافة، عيناه تراقبان الدخلاء بعناية. صمت الليل لم يكن مريحاً له، بل كان ينبض بشيء غير مألوف، شيء غامض يتربص في الظلال. شعر بالبرد يتسلل إلى عموده الفقري.

وفجأة، قبل أن يدرك ما يحدث، شعر بيد قوية تمسكه من الخلف بقوة، وفي غمضة عين وجد شفرة باردة تستقر على حلقه. تجمد في مكانه، أنفاسه تتسارع بينما يداه ترتعشان قليلاً.

صوت منخفض وخشن همس في أذنه، مليئاً بالتحذير:

"لا تتحرك... لا تتهور."

الموقف في غاية الخطورة، كانت أنفاس العربي تتسارع، ونبضات قلبه تدق كطبول تحذر من خطر وشيك. بنبرة مشوبة بالذعر، همس قائلاً:

"من أنت يا هذا؟"

الرد جاء بسرعة وقسوة. شد الرجل قبضته على كتف العربي أكثر، فشعر كأن يده تتحول إلى قيد من حديد:

"لست في موقف يخولك لطرح الأسئلة."

قالها بصوت منخفض، لكن حازم، كمن يملك زمام الأمور كاملة. ثم زاد الضغط على شفرة السكين الملتصقة برقبة العربي، واقترب حتى شعر بحرارة أنفاسه الكريهة تلطم خدّه، وكأن كل نفَس يحمل تهديداً بمصيره المحتوم.

"أنت، أخبرني ماذا تفعل متسللاً في هذا الوقت خلف رفاقي؟"

كـان الصـوت قريبـاً جـداً، كأنـه صـادر مـن أعمـاق الجحـيم. ارتجف العربي، عقله يعمل بسـرعة محـاولاً تحليـل الوضـع. لكن الخوف كان أكبر من أن يسمح له بالتفكير بوضوح.

"هؤلاء زملاؤك؟"

نطق العربي بصعوبة، ولسانه أثقلته الحيرة والذعر.

"لقد رأيتكم تتسللون إلى مخيمنا. من أنتم؟ وما غايتكم؟"

لكن الرجل لـم يكـن ينـوي الـرد علـى الأسـئلة. كـان يعلـم أن العربي فـي موقـف أضـعف بكثيـر مـن أن يملـي عليـه شـيئاً. وبنبرة أشد برودة من السكين التي تهدد حياة العربي، قال:

"سبب وجودنا هنا ليس من شأنك يا هذا."

بدأ العرق يتصبب من جبين العربي مع كل لحظة تمر، وكأن جسده يتفاعل مع الخوف المتزايد في داخله. شعر بأن الوقـت يمـر بـبطء شـديد، وبـأن الفرصـة للنجـاة تتلاشـى. حـاول أن يستجمع ما تبقى من شجاعته، فقال بتردد واضح في صوته:

"سيدي... ما رأيك أن تفلتنـي؟ أعدك... أعـدك أننـي لـن أتفوه بأي شـيء... لن أخبر أحداً ببنت شفة عما رأيته."

ضحك الرجل بخفة، ضحكة مشوبة بالتهكم، ثم همس في أذنه بصوت خافت ولكن ممتلئ بالتهديد:

"ما رأيك أنت بأن تخرس، وتتحرك بصمت نحو رفاقي؟"

شعر العربي أنه لا يملك خياراً سوى الامتثال. لم يكن لديه أدنى فكرة عن مصيره مع هؤلاء الرجال الغامضين، لكنه أدرك أن كل حركة خاطئة قد تكلفه حياته. سار معه بهدوء، خطواته ثقيلة وخائفة، وهو لا يدري ما الذي ينتظره.

عند اقترابهم من مكان رفاق الرجل، همس لهم بصوت منخفض. التفتوا إليه بسرعة، وظهرت الدهشة على وجوههم عند رؤية العربي بين أيديهم. اقترب أحدهم بخطوات سريعة، وعندما نظر في ملامح العربي عن قرب، صُدم.

"هل هذا أنت يا عربي؟"

قال لحبيب وهو يحدق في وجهه بتفحص.

العربي نفسه لم يكن أقل دهشة. مشاعر الاضطراب والذهول تلاطمت في ذهنه، وعصفت التساؤلات برأسه. ماذا يفعل لحبيب هنا؟ وما الذي يحدث بحق الجحيم؟ تمتم وهو يكاد لا يصدق:

"لحبيب؟ ما الذي يجري هنا بحق الجحيم؟"

اقترب المختار وسعيد والبقية بخطوات حذرة بعدما سمعوا الهمسات والمحادثة الجارية. وعندما رأوا وجه العربي، توقفوا فجأة، وقد ارتسمت على وجوههم علامات الدهشة والحيرة. تلك النظرات المتبادلة بين الرجال لم تخفِ الصدمة التي شعروا بها. كان العربي، الشخص الذي لم يتوقعوا رؤيته هنا، يواجههم بعيون تتأرجح بين الغضب والذعر.

قطع الصمت الذي خيم على الأجواء صوت الرجل الذي كان يمسك بالعربي، وقد بدا على وجهه الارتياح:

"هل تعرفونه؟"

العربي، الذي كان يحاول كبح جماح مشاعره المتصاعدة، شعر بالغضب يتفجر في داخله. كل الظنون والشكوك التي تملكت عقله منذ اللحظة التي رآهم فيها في المخيم تأججت بداخله. بصوت متوتر، مليء بالتحدي والريبة، قال:

"لقد شعرت بالريبة عند رؤيتكم لأول مرة... أي فتنة جئتم بها لقبيلتنا؟"

ساد الصمت المطبق فجأة بين الجميع، وكأن الرياح قد توقفت عن الهبوب، وكأن الكلمات نفسها أُسرت في زنازين الخوف.

نظرات القلق توزعت بين الوجوه، فكل منهم كان يبحث عن تفسير في عيون الآخر، لكن لم يتجرأ أحد على الإجابة.

ومع ذلك، الرجل الذي كان يمسك بالعربي لم يتأثر بالصمت الثقيل. بابتسامة ساخرة، وببرود، قال بلهجة مليئة بالتهكم والتهديد:

"توقف عن الثرثرة، أيها الغبي، وإلا قطعت صوتك إلى الأبد."

تلك الكلمات أشعلت فتيل الغضب في صدر العربي، وجعلته يتصرف دون تفكير. بقبضة من حديد، أمسك بمعصم الرجل، وسحبه بقوة خاطفة إلى الأمام، وكأنه يجر دمية هشة. لحظة سقوطه على الأرض كانت كالرعد، الارتطام المدوي أرعب الجميع.

المختار، لحبيب، والبقية تحركوا في تناغم، دون الحاجة إلى كلمات. عيونهم التقت في لحظة توافق صامتة؛ كل واحد منهم كان يعرف دوره. استداروا بسرعة، وأيديهم تتلاعب بخناجرهم الحادة، الضوء الخافت من النار يتراقص على شفرات السكاكين.

العربي وقف بينهم، متوتراً لكنه لم يظهر ضعفه. عيناه تجولان بينهم بنظرات حادة كالصقور، بينما قلبه يخفق بشدة، مستعداً لأي هجوم قد يأتي من أي اتجاه. رغم الخوف الذي

شعر به في داخله، لم يكن على استعداد للتراجع. نبرة صوته كانت مزيجاً من الغضب والعزيمة:

"تعالوا إليّ، يا جبناء! هل ظننتم أنني سأدعكم تهيمون فساداً في قبيلتنا؟ أنتم أوغاد!"

تبادل الرجال النظرات للحظة، قبل أن ينفجر التوتر في الهواء كشرارة نار، معلناً بداية مواجهة لا مفر منها.

المشهد كان مشحوناً بالغضب، والعربي واقف بينهم يتحداهم بصرامة، يتنفس بسرعة وهو مستعد لأي حركة مفاجئة. لكن فجأة، أشار المختار بيده لرفاقه بالتوقف. ببطءٍ، اقترب من العربي بخطوات محسوبة، ثم فجأة رمى السكين التي كانت في يده على الأرض، وكأنها كانت ثقلاً يريد التخلص منه.

بنبرة هادئة رغم التوتر الذي يلف المكان، قال المختار:

"لا نريد إراقة الدماء الليلة."

العربي لم يتراجع، وجهه مشدود بالغضب وعيناه تشعان توتراً حذراً. قال بحزم:

"إن لم يكن لديكم نية لإراقة الدماء، فما الذي تفعلونه هنا؟ وما غايتكم من هذا التسلل في الظلام؟"

المختار، محاولاً الحفاظ على هدوئه، رفع يديه قليلاً في إشارة لعدم العداء:

"لسنا هنا للإضرار بالقبيلة. هناك أمور تتعلق بنا وحدنا، لا نريد التورط معك ولا مع غيرك."

لكن العربي لم يكن مقتنعاً:

"تتسللون في الليل، تتهامسون بين الخيام. لا شيء مما تفعلونه يبعث على الاطمئنان! أي نوع من الأمان تدّعون الحفاظ عليه؟"

تدخل لحبيب، محاولاً أن يبدو ودوداً، لكن توتره كان واضحاً:

"استمع لنا يا عربي، نحن لا نريد إثارة المشاكل. الأمر بسيط... لدينا بعض الأعمال الخاصة التي لا علاقة لها بالقبيلة."

العربي نظر إليهم بتوجس، عينيه تلمعان بالحذر، جسده مشدود وكأنه جاهز للقفز في أي لحظة. قال بنبرة ساخرة:

"أعمال خاصة؟ في حدود القبيلة؟ أعتقد أنكم تعتبرونني أحمقاً؟"

رفع المختار حاجبه وأجاب بصوت خفيض لكنه ثابت:

"ليست كل الأمور تستوجب الإفصاح عنها. أحياناً، الصمت يكون حفاظاً على الأمان. ليس لنا نية في المساس بأحد هنا."

العربي لم يصدقهم:

"الكلام سهل، لكني أرى نواياكم في عيونكم. أنتم تحاولون إخفاء شيء. قل لي، ماذا تخططون؟"

لحبيب تدخل مجدداً، هذه المرة بصوت أكثر إلحاحاً:

"صدقني يا عربي، لو كنا نريد الضرر بالقبيلة، لبدأنا بالفعل. نحن هنا فقط من أجل أمر... خاص. لا علاقة له بالقبيلة أو أهلها."

العربي لم يخفِ تحفّظه، وعيناه تتنقلان بين المختار ولحبيب كأنه يحاول فهم نواياهم من خلال لغة أجسادهم:

"أنا هنا لحماية القبيلة. وأي شيء يحدث في حدودها هو من شأني."

المختار وضع يده على كتف لحبيب، محاولاً تهدئة الوضع قليلاً، ثم نظر إلى العربي بعينين ثابتتين:

"لا أحد ينكر حقك في الحماية. لكن صدقني، لو أردنا الإساءة، لما كنا نتحاور الآن. أعطِنا ثقتك الليلة، ولن يحدث شيء. سنرحل بهدوء."

العربي ألقى نظرة على السكين الملقاة على الأرض، ثم رفع عينيه مجدداً نحوهم، مشدداً قبضتيه وكأنه يستعد لأي محاولة مباغتة:

"حسناً، لن أتحرك من هنا حتى أعرف الحقيقة كاملة."

المختار تنفس بعمق، وألقى نظرة على لحبيب، وكأنهما اتفقا بصمت على شيء:

"الوقت ليس مناسباً للحقائق الكاملة، لكن ثق بنا، نحن لا نريد إيذاء أحد."

كان الجو متوتراً للغاية، وكل حركة صغيرة بدت وكأنها قد تشعل المواجهة من جديد.

اقترب المختار من العربي بخطوات ثقيلة وحذر، ثم انحنى قليلاً وألقى بسكينه الأخرى على الأرض أمامه، في إشارة إلى أنه لا ينوي إراقة الدماء. قال بصوت هادئ وموزون:

"لسنا هنا لنزرع الفوضى، يا عربي. كل ما نريده الليلة هو إيجاد ابن السيدة رحمة... سالم ذلك المفقود."

تجمد العربي في مكانه، واشتعلت التساؤلات والقلق في رأسه. قال بنبرة متوترة:

"سالم؟ لماذا تبحثون عنه؟ ما الذي تريده منه؟"

تبادل المختار ولحبيب نظرات سريعة، وكأنهما يحاولان الاتفاق بصمت على ما سيقولانه. أجاب لحبيب محاولاً التستر على نواياهم الحقيقية:

"لا تقلق. ليس لدينا أي نية سيئة تجاهه. نحتاج فقط إلى العثور عليه."

العربي لم يقتنع، وظهر الغضب في عينيه:

"هذا الشاب من قبيلتنا، يا لحبيب! لقد أنقذ حياتي أثناء المسابقة، وأنا لن أسمح لكم بأن تؤذوه مهما كانت نواياكم. إذا وجدناه، سيكون تحت حماية القبيلة. لا تحت حماية أي أحد آخر."

المختار وضع يده على ذراعه، محاولاً تهدئته، لكن العربي أزاح يده بسرعة، ووجه نظرات تحدٍ إلى الجميع:

"ما هي نيتكم الحقيقية؟ لماذا تبحثون عن سالم؟"

كان الصمت سيد الموقف. حاول لحبيب أن يقول شيئاً، لكنه لم يجد ما يرد به على حدة العربي. أما المختار، فقد بقيّ يراقب الموقف بصمت، يدرك أن المواجهة مع العربي قد تتفاقم.

العربي عبس وجهه وأخذ خطوة للوراء، عاقداً ذراعيه وهو يقول بنبرة متحجرة:

"لا أثق بكم، ولن أسمح لكم بتحقيق ما تدبرونه. مهما كان هدفكم من العثور على سالم، لن يحدث ذلك طالما أنا هنا."

حاول المختار استمالته بكلمات طيبة، وقد طغت على نبرته لمحة من التوسل:

"يا عربي، نحن لسنا أعداء. لا نسعى للضرر، ولا نريد إثارة الفوضى في قبيلتكم. سالم... أمر أكبر مما تظن."

لكن العربي ظل واقفاً بثبات، بعينين تشعان بالحذر، واستطاع أن يحافظ على حلمه رغم التوتر الذي يعتريه. قال بحزم:

"اسمعوني جيداً، عليكم مغادرة القبيلة في أقرب وقت، وإلا سأخبر الأمير بكل ما دار هنا. ثقوا بي، لن يكون ذلك في مصلحتكم. أمامكم فرصة الآن، قبل أن أفقد صبري."

تبادل المختار ورفاقه نظرات مضطربة. كل منهم كان يدرك أن الأمور باتت على حافة الانهيار، ولم يعد هناك مجال للحديث أو الإقناع. كانوا عاجزين عن الرد على تهديد العربي، وكأن الصمت كان أبلغ من أي كلمات.

أخذ العربي نفساً عميقاً، ثم استدار وغادر المكان، تاركاً خلفه جواً مشحوناً بالتوتر. عيون المختار ورفاقه ظلت تلاحقه حتى اختفى في الظلام. كانوا يعرفون أن الوضع قد تعقد بشكل كبير، وأصبحت مهمتهم في خطر.

بعد مغادرة العربي، اقترب الرجل الذي كان يهدد العربي، وعلامات الاستفهام بادية على وجهه. قال بقلق:

"لماذا تركناه يذهب بهذه البساطة؟"

رد المختار بجدية، وهو ينظر إلى الرفاق:

"لأن مالك أخبرنا أنه ابن أحد الشيوخ في القبيلة. التعامل معه قد يكلفنا أكثر مما نظن. لا يمكننا المخاطرة بقتله أو حتى بإيذائه."

لحبيب، الذي كان يتابع الحوار بتركيز، انضم إلى النقاش، قائلاً:

"لكن ماذا نفعل الآن؟ تركنا العربي يذهب دون خطط. ووجودنا هنا يجعل الأمور أكثر تعقيداً."

ابتسم المختار بمرارة، وواصل:

"نعم، لكن إذا علم الأمير بما يحدث، سنكون في مأزق أكبر. ويبدو أن الوقت لم يعد في صالحنا."

فكر لحبيب للحظات ثم اقترح:

"ماذا لو انتقلنا إلى وادي لحنوك غداً؟ يمكننا الاختباء هناك لبعض الوقت، والانتظار حتى نحصل على معلومات حول سالم. بهذه الطريقة، سنكون في مأمن، وسنتمكن من التفكير في خطة أخرى."

هز المختار رأسه موافقاً، وأوضح:

"هذا قرار حكيم. وادي لحنوك منطقة معزولة، ولن يشتبه أحد فينا هناك. في الوقت نفسه، يمكننا أن نراقب الأوضاع في القبيلة. إذا علمنا بمكان سالم، يمكننا التصرف بسرعة."

تبادلت النظرات بين المختار ولحبيب، حيث بدت الرغبة في العثور على سالم تشتعل في عيونهم. بينما كان الحوار مستمراً، أطلق الرجل الذي كان يهدد العربي تنهيدةً عميقة،

مشيراً إلى مدى الخطر الذي يواجههم. لكن المختار أكد للجميع:

"علينا أن نبقى هادئين. فقط إذا كنا متحدين ومركزين على هدفنا، سننجح في مهمتنا."

بالفعل، اتفق الجميع على الرحيل في الصباح الباكر، واستعدوا للخروج في تلك الليلة، بينما كانت الأجواء تتلبد بالقلق والمخاوف من المجهول.

*****

ليست لك

كان النهار اليوم التالي يتنفس أولى أنفاس الضحى، بينما الشمس تشع في سماء صافية، ترسل خيوطها الذهبية لتعانق أطراف خيمة الأمير الواسعة. تلك الخيمة كانت أعجوبة في حد ذاتها؛ منسوجة بألوان متناسقة من الخيوط الحريرية والقماش الفاخر، تتراقص أطرافها مع النسيم أول الخريف الذي يتسلل بخفة، حاملاً معه عبق البرية المنعش.

سقف الخيمة كان مزيناً بنقوش قديمة تصور أمجاد القبيلة، بينما تغطي الأرضية سجاد ناعم مزيّن بزخارف شرقية، تملأ المكان برائحة البخور والعنبر.

في هذا الجو الساكن، جلس الأمير بثبات وهيبة، ووجهه يشع وقاراً وجسده يملأ المكان قوةً. على مقربة منه، جلست فاطمة، زوجته، وابتسامة رقيقة ترتسم على شفتيها، تملأ وجهها فرحة وهي تستمع لأحاديث أبنائها.

صلاح بجديته المعتادة، مائلاً قليلاً للأمام، بينما ظهرت عليه علامات الاهتمام برأي من حوله، وعيناه تتابعان الجميع. قال بصوت واثق:

"علينا أن ننهي كل الترتيبات بسرعة. الوقت لا ينتظر، والزفاف يقترب."

عبد الفتاح ضحك، وقال بمزاح وهو يتكئ على وسادة، ناظراً إلى أخيه الأكبر:

"لا أذكر أنني تفوقت عليك يا أخي في أي شيء، إلا عندما تزوجت قبلك."

ثم ضحك بخفة، محاولاً كسر جديّة الحوار.

ابتسمت فاطمة وهي تنظر إلى صلاح، وقالت بحنان:

"أنت لا تقل جدية عن والدك في كل أمر يا صلاح. هذا ليس زفافاً فقط، بل مناسبة لتكون سعيداً."

زهراء، التي كانت جالسة بجانب والدتها، تفاعلت بلمحة من السعادة التي عادت تدريجياً إلى حياتها بعد اختفاء صديقها. فقالت بصوت خافت وهادئ:

"أخي صلاح، يجب أن تكون العروس سعيدة بقدومك إليها. لا تجعل الأمور كلها حول الترتيبات."

هز صلاح رأسه ببطء، وأجاب بجديته المعتادة:

"سأفعل كل ما يجب لإتمام الأمور بشكل لائق. أنا الآن أفكر في السفر إلى وادان، لأحضر بعض التجهيزات لعروستي."

عبد الفتاح أضاف مازحاً:

"إذا كنت ذاهباً إلى وادان، فاجعلني رفيقاً لك في الرحلة. لا أستطيع أن أتركك ترتكب الأخطاء!"

ابتسم صلاح برضا، وقال بجدية:

"أوافق. لا بأس، بأن تكون رفيقي. سنغادر غداً."

ابتسمت فاطمة وهي تضع يدها على كتف زهراء برفق، مشيرة إلى أن الحياة تستمر برغم كل شيء، وأن صلاح في طريقه لبدء حياة جديدة.

تبادل صلاح وعبد الفتاح النظرات قبل أن يبدآ بالسير نحو الخارج. الأخير لم يستطع مقاومة إغاظة أخيه قائلاً بضحكة خفيفة:

"أتعرف يا صلاح، أعتقد أنني سأحتاج لتعليمك شيئاً أو اثنين عن التعامل مع النساء، يبدو لي أنك لا تزال بحاجة لتعلم بعض المهارات."

نظر صلاح إليه بنظرة جادة كعادته وقال:

"النساء لسن موضوعاً للمزاح يا عبد الفتاح. تعامل معهن بجدية، وستجد الاحترام متبادلاً."

رد عليه عبد الفتاح بمزيد من المزاح، وهو يربت على كتف صلاح:

"أوه، يا له من فارس نبيل! لكن أخشى أنك عندما تحين لحظة الحسم مع عروسك، ستقف حائراً."

ابتسم صلاح برغم محاولته الحفاظ على جديته، فيما الأمير وفاطمة وزهراء كانوا يراقبونهما وهما يتبادلان هذه المناوشة الطريفة. نظرت فاطمة لزوجها وقالت بابتسامة:

"هو دائماً هكذا، عبد الفتاح لا يفوّت فرصة للسخرية من أخيه."

زهراء، ضحكت بخفة وعفوية وهي تقول:

"ربما يخفف هذا من صرامة صلاح قليلاً."

***

في جو من الهدوء، جلست زهراء مع والدتها فاطمة على وسائد ناعمة، تتحدثان حول تفاصيل الزفاف القادم، والأجواء المحيطة به، فيما يعم الخيمة نسيم لطيف. كانت فاطمة هادئة، تحاول طمأنة ابنتها والحديث عن الفرح الذي سيملأ القبيلة قريباً.

فجأة، دخل أحد رجال الأمير وانحنى قليلاً قبل أن يقول بصوت رصين:

"سيدي الأمير، السيد مولاي من قبيلة العباس يستأذن للدخول."

تبادلت فاطمة النظرات مع زهراء، وكأن كل منهما تدرك مدى أهمية هذا الضيف. تبدلت نبرة الحديث في الخيمة إلى ما هو أكثر جدية. تحركت زهراء ببطء وهمّت بالجلوس بشكل مرتب على الجانب، بينما حاولت تمالك يداها المرتجفتان، لكنها لم تستطع إخفاء تعابير القلق التي غمرت وجهها. قلبها أخذ بالخفقان السريع عند سماع اسم مولاي، ولم تستطع تجنب تلك الأفكار التي مرت ببالها عن نظراته التي لطالما شعرت بها.

الأمير جلس في مكانه المعتاد، بظهر منتصب ونظرة هادئة، وقد اعتاد على استقبال الضيوف في مثل هذه المواقف

الرسمية. عندما أعلن الحارس عن قدوم السيد مولاي، أشار الأمير برأسه بهدوء قائلاً:

"دعه يدخل."

دخل مولاي إلى الخيمة بخطوات واثقة، وأحنى رأسه بتحية احترام للأمير:

"السلام عليكم يا سيدي."

رد الأمير التحية بجديته المعهودة:

"وعليك السلام يا مولاي، تفضل."

ثم رمق ابنته زهراء بطرف عينه، متفحصاً رد فعلها، فهو على دراية بخجلها.

جلست زهراء بهدوء إلى جانب والدتها، محاولَةً بكل جهدها تجنب نظرات مولاي، لكنها كانت تدرك أن عينيه تطوفان في أرجاء الخيمة وتعودان نحوها.

قلبها كان يزداد خفقاناً مع كل لحظة، فيما حاولت السيطرة على أعصابها بوضع يديها في حجرها، وكأنها تستمد بعض الثبات من ملمس ثوبها الناعم.

أما فاطمة، فقد حاولت خلق توازن في الجو، مستدركة الموقف بخفة، فقالت بابتسامة لطيفة:

"مولاي، شرفتنا بزيارتك. نرجو أن تكون بخير."

رد مولاي باحترام، ناظراً إلى الأمير ثم إلى فاطمة قائلاً:

"أشكر لطفكم يا سيدتي، وإنه لشرف لي أن أكون هنا."

كانت عيناه تعودان سريعاً إلى زهراء، التي حاولت جاهدة إخفاء ارتباكها. في كل مرة تلتقي نظراتها بعينيه، كانت تشعر بحرارة تسري في وجنتيها، فتخفض عينيها إلى الأرض مجدداً.

بعد تبادل التحية والجلوس، قال مولاي بابتسامة وهو ينظر إلى الأمير:

"سمعت أن زفاف صلاح بات قريباً. كيف تسير الأمور؟"

الأمير، الذي كان يجلس بجانب فاطمة، أومأ برأسه قائلاً:

"نعم، الأمور تسير كما خططنا. صلاح سيغادر قريباً إلى وادان ليُحضِّر بعض الأمور المتبقية للعروس."

ابتسم مولاي وهو يهز رأسه بإعجاب:

"إنها مناسبة كبيرة، مبارك له. أرجو أن يعود من رحلته سالماً."

أعقب ذلك لحظة من الصمت، بدا وكأنها تمهيد لشيء أكبر. تنحنح مولاي فجأة، وتغيرت ملامحه من الود إلى الجدية. مال قليلاً نحو الأمير وقال بنبرة أكثر خفوتاً، ولكنها ملحوظة:

"سيدي، هناك أمر يجب أن نناقشه... بخصوص ما طلبته منك سابقاً."

شعر الأمير بالتوتر، وتغيرت ملامحه وهو يتبادل نظرات سريعة مع فاطمة، ثم نظر بحذر نحو زهراء، التي كانت جالسة في طرف الخيمة، تتأمل بهدوء، لكنها استشعرت تغير الأجواء. عيناها الواسعتان امتلأتا بالقلق، وحاولت تجنب نظرات مولاي التي كانت تميل إليها بين الحين والآخر.

تحدث الأمير بصوت هادئ لكنه متوتر:

"ربما علينا تأجيل هذا الحديث إلى وقت لاحق يا مولاي... لا نزال في حضرة العائلة."

زهراء شعرت أن هناك شيئاً غامضاً يحدث، ولكنها لم تتجرأ على السؤال. وضعت يدها على ركبتيها وحاولت أن تبدو غير مكترثة، رغم أن قلبها كان ينبض بشدة.

ابتسم مولاي بهدوء ونظر إلى الأمير قائلاً:

"لكن يا سيدي، أرى أن الوقت مناسب تماماً. العائلة حاضرة، وما أود الحديث بشأنه يخصهم أيضاً. لا داعي للتأجيل، أليس كذلك؟"

تردد الأمير للحظة، لكنه شعر بثقل كلمات مولاي. عبس قليلاً وأخذ نفساً عميقاً، محاولاً السيطرة على توتره:

"إن كان لا بد من الحديث الآن..."

قال بصوت منخفض، محاولاً كسب بعض الوقت للتفكير.

فاطمة، التي كانت تراقب الحوار عن كثب، التفتت إلى الأمير وابتسمت له برفق كإشارة دعم. كانت عيناها تسألان عن تفاصيل لا تعرفها، لكنها اختارت الصمت وانتظار ما سيحدث.

أما زهراء، فقد شعرت بأن شيئاً أكبر يجري خلف هذه الكلمات، وعندما التفتت بنظرة خجولة نحو مولاي، لاحظت تلك النظرة الثابتة عليه.

ارتبكت قليلاً ورفعت يدها لتعدل من خصلات شعرها التي انسدلت من تحت غطاء رأسها، محاولة إخفاء توترها المتزايد. قلبها ينبض بسرعة وهي تشعر بثقل نظرات الجميع في الخيمة.

الأمير تنفس بعمق، محاولا تمالك نفسه قبل أن يلتفت نحو ابنته زهراء وأمها فاطمة. قال بنبرة هادئة لكنها مشوبة بالتوتر:

"مولاي جاء اليوم إلى خيمتنا بهدفٍ نبيل. لقد طلب مني رسمياً يد زهراء للزواج."

صمتٌ ثقيلٌ حل على الجميع. فاطمة وضعت يدها على قلبها وهي تنظر إلى زوجها الأمير بعينين متسائلتين. زهراء من جانبها جفلت، وأحست بحرارة دمائها تجري في وجنتيها، ارتبكت نظرتها بينما حاولت تفادي التواصل البصري مع مولاي.

مولاي بدوره جلس في هدوء، مبتسماً بخفة، منتظراً ردة الفعل دون أن يتحرك أو ينبس ببنت شفة، لكنه كان يراقب زهراء بعينين حادتين، بينما استدار الأمير قليلاً، متجنباً مواجهة عيني ابنته المباشرة.

بعد لحظة من الصمت، تنفس بعمق مجدداً، ثم تابع بنبرة واثقة لكنه محافظ على هدوئه:

"مولاي، سأكون سعيداً بأن تكون زهراء زوجة لك. فهي تستحق رجلاً مثلك، ونبيلا من قبيلة كريمة."

مولاي ارتسمت على وجهه ابتسامة رضى، وعيناه لمعتا بشعور واضح بالانتصار. جلس بارتياح أكبر وكأنه حقق مراده.

لكن الأمير رفع يده قليلاً، مشيراً إلى أنه لم ينتهِ بعد. سكت للحظة، ثم استدار نحو زهراء وأكمل قائلاً:

"مع سعادتي بهذا الأمر، لا يمكنني اتخاذ أي قرار دون الأخذ برأي زهراء. فالأمر يخصها أولاً."

ساد صمتٌ متوترٌ في الخيمة، وكأن الهواء أصبح ثقيلاً. تحولت جميع الأنظار إلى زهراء، التي كانت تجلس في الزاوية، مرتعشة قليلاً، ووجهها أصبح محمراً.

بدت غير قادرة على التحكم بتعابير وجهها المتوترة، وعيناها تنتقلان بين والدها ومولاي، بينما الجميع ينتظر سماع ردها.

الأمير نظر إلى ابنته زهراء بحنان، محاولاً أن يخفف عنها، وقال بصوت هادئ:

"القرار بيدكِ يا زهراء، وأنا متأكد أن مولاي سيكون راضياً بأي قرار تتخذينه."

مولاي جلس متوتراً، وهو يحاول إخفاء ذلك خلف نظرات هادئة لكنه لم ينجح تماماً. أما زهراء، فقد كانت تعاني من التوتر الداخلي الذي انعكس على جسدها.

لاحظت والدتها تحرك يديها برفق وهي تعبث بأطراف وشاحها دون أن تشعر، ثم أخذت تدير خاتمها على إصبعها بعصبية.

كانت عيناها تتجنبان مولاي بشكل متكرر، وكأنها تحاول استيعاب الموقف الضاغط الذي تجد نفسها فيه.

مرت اللحظات وكأن الزمن قد توقف، التوتر يثقل الأجواء، وكان الجميع يترقب رد زهراء بقلق واضح. نظرات الأمير تعكس مزيجاً من القلق والتفهم، بينما حاولت فاطمة أن تخفي توترها خلف ملامح ثابتة.

أما مولاي، فكان يجلس وكأن أنفاسه محبوسة، ينتظر بصمت متوتر. زهراء لم تتحرك في البداية، وكأنها تزن الكلمات في رأسها بعناية.

وفجأة، وقفت بعصبية، فارتفعت الأنظار نحوها مرة واحدة. كانت ملامحها متجمدة، لكن جسدها كان يتحدث عن قلق واضح. نظرت إلى مولاي مباشرة، وعيناها تلمعان بنظرة جادة، ثم قالت بصوت هادئ لكنه مؤلم:

"سيدي مولاي... أقدر طلبك، ولكنني لا أستطيع القبول."

كانت كلماتها محترمة، لكنها تركت وقعاً قاسياً على قلب مولاي. رأى الجميع الانكسار العابر في عينيه، رغم محاولته الاحتفاظ برباطة جأشه. عمّ الصمت المكان، ولم يكن هناك من يجرؤ على كسر هذا الصمت المميت.

زهراء أخذت نفساً عميقاً ثم استأذنت بهدوء من الجميع، بخطوات ثابتة ولكنها مثقلة بالمشاعر. غادرت الخيمة، تاركة وراءها جواً من الصدمة والتوتر، وكأن كل الأنفاس قد توقفت في لحظة مغادرتها.

بعد مغادرة زهراء، جلس الجميع في صمت لبضع لحظات، وكأنهم يحاولون استيعاب ما حدث. الأمير كان قد توقع رد ابنته، لكنه رغم ذلك شعر بضرورة تقديم الاعتذار لمولاي. بادر بصوت هادئ ومحترم:

"مولاي، أرجو أن تتقبل اعتذارنا. زهراء لها رأيها الخاص، ونحن نحترم قرارها. لكنني أود أن أؤكد لك أننا نحمل لك كل الاحترام والتقدير."

رفعت فاطمة عينيها نحو مولاي، متحدثة بود وهي تساند زوجها:

"نحن نقدر كثيراً اهتمامك وطلبك، مولاي. وأرجو أن تعلم أن ما حدث ليس تقليلاً من شأنك، بل هو احترام لرغبة ابنتنا. نعتذر إن كان هذا الرد قد تسبب لك بأي أذى."

مولاي ظل صامتاً للحظات، بدت عليه الحيرة وكأنه يبحث عن كلمات مناسبة، لكنه في النهاية اختار الصمت. كان واضحاً أن رفض زهراء قد ترك أثراً عميقاً، لكن كبرياءه منعه من إظهار مشاعره بشكل مباشر. وقف بهدوء، وبدأ يستعد للمغادرة.

بصوت منخفض، قال:

"أشكركم على حسن تعاملكم، يا سيدي الأمير، وسيدتي فاطمة. *كان لي الشرف."*

لكنه لم يرفع عينيه لينظر إليهم مباشرة، وكأن الموقف قد أثقل عليه. بعدها، غادر الخيمة بصمت، تاركاً خلفه جواً مشحوناً بالحيرة والأسف.

*****

ثوران

الشمس ارتفعت نحو منتصف السماء ببطء، ناشرةً ضياءً ذهبياً يغمر المخيم الكبير، حيث تتمايل الخيام مع نسيم خفيف يتسلل بلطف بين جوانبها. في قلب المخيم، برزت خيمة الأمير، شامخةً وسط خيام أخرى، تتراقص أطرافها مع نسمات الهواء، وكأنها تبارك الأرض بوجودها المهيب.

شيخنه وقف في أحد الأزقة الضيقة بجوار خيمة الأمير، مسنداً جسده على عمود خشبي متين. هيأته كانت توحي بالقوة والهيبة، عيناه الحادتان تجولان بحذر بين ملامح المخيم. يداه المتشابكتان خلف ظهره زادت من بروز عضلاته المشدودة، مما جعله يبدو أكثر قوة وجاذبية.

لم تمضِ سوى لحظات حتى لمح زهراء تخرج من خيمة الأمير، خطواتها كانت سريعة، لكن يكتنفها توتر وعصبية واضحين. عبرت زقاقاً ضيقاً واختفت عن ناظريه. شعر شيخنه بشيء من القلق، إذ كان يحس أن الأمور لم تسر كما

كان يأمل مولاي. تزايد توتره، منتظراً صديقه، ولم يطل انتظاره. خرج مولاي من الخيمة، ملامحه تشي بانكسار، وعيناه تعكسان صدمة ثقيلة.

اقترب شيخنه بحذر من صديقه، وحين تلاقت نظراتهما، أدرك أن النتيجة كانت مخيبة. قال بصوت هادئ محاولاً التخفيف:

"يبدو أن الأمير رفض طلبك."

مولاي لم ينبس بكلمة، بل توجه مباشرة نحو حصانه المربوط، عيناه مشتعلة بالغضب. كان هدوءه الظاهري يخفي عاصفة تكاد تنفجر داخله. مدّ شيخنه يده محاولاً تهدئته، وقال بنبرة ودودة:

"مولاي، عليك أن تهدأ. فالغضب لن يقودك إلى الحكمة."

أغمض مولاي عينيه للحظة، وصدى كلمات زهراء الصارمة يتردد في ذهنه، *"لن أقبل بك زوجاً."* كلماتها كانت كحد السيف، لا مكان للين فيها. شعر بحرارة الغضب تشتعل داخله وهو يصعد على حصانه، مغادراً دون إلقاء نظرة خلفه، فيما شيخنه يلاحقه بقلق ويحثه على التعقل.

مرّ مولاي بسرعة عبر زوايا المخيم، غير مبالٍ بنظرات الناس المتسائلة. لم تثر الألوان الزاهية للخيام اهتمامه، فقد كانت الخيبة تسيطر على كل جزء منه، تلتهم بريق المكان من حوله. كان وكأن كل عثرة في الطريق تضرب قلبه.

أخيراً، بلغ خيامه، وأطلق لزمام حصانه العنان، ثم وقف للحظة، مشدوداً بتيار الغضب الذي كان يكاد يغلي داخله.

اقترب مولاي من خيمته الكبيرة، متجاهلا التحيات التي ألقاها عليه رجاله وخدمه. كانت خطواته متسارعة، وعقله مشغول بكلمات زهراء التي ترددت في ذهنه كصدى مرير. أزاح الباب القماشي بإهمال ودخل، لتلقاه دنيا، إحدى الجواري، بابتسامة مغرية.

"أهلاً بك، سيدي مولاي. لقد كنت أنتظرك بفارغ الصبر. تعال إلي يبدو أنك متعب؟"

قالت بصوت ناعم، ترفرف برموشها. لكن في لحظة، تحول مزاجه.

"تبا لكِ!"

صرخ، بينما يصفعها بقوة حتى انهارت على الأرض.

"ماذا تظنين؟ هل تعتقدين أنني بحاجة إلى ضحكاتك السخيفة الآن؟"

تراجعت دنيا، خائفة، وقد امتلأت عيناها بالدموع.

"سيدي مولاي، أنا هنا لأخفف عنك... لم أقصد إزعاجك!"

"أنتن لا تفهمن شيئاً! ألا تستحون من أنفسكن؟"

انفجر، والجنون يتسلل إلى صوته:

"اخرجن من هنا! لا أريد رؤيتكن مجدداً يا عاهرات!"

غادرت الجواري، وقد امتلأت عيونهن بالدموع، تتبادل النظرات الحزينة، تتنهدن في خيبة.

"لماذا يصرخ هكذا؟"

داخل الخيمة، مولاي كان أشبه بعاصفة من الغضب. صرخاته تتردد في أرجاء المكان وهو يدفع بأثاث الخيمة بقوة، مفسداً كل شيء من حوله. رمى بالوسائد وبعثر الأواني، وصوت تمزق الستائر يرافق كلماته الغاضبة:

"كيف يجرؤ الأمير على إهانتي هكذا؟! وكيف تجرؤ تلك الفتاة الوقحة على رفضي؟!"

تقدّم إلى وسط الخيمة وأخذ يركل الفُرُش بقدميه، ملوحاً بيده وهو يشتم:

"لقد جئت بكرامة، وبكل كبرياء، وهذا ما أحصل عليه؟ إهانة أمام الجميع! لا يمكن لهذا أن يمر!"

بغضب. ضرب بطرف قدمه صندوقاً خشبياً، مما جعله يتدحرج إلى جانب الخيمة. صوته كان يعلو بغضب لا يُوصف:

"الأمير... وابنته الساقطة... لن أغفر لهما أبداً! سأريهما من هو مولاي!"

في الخارج، كان الجو ملبداً بالخوف والتوتر. رجاله وخدمه كانوا يلتفون حول الخيمة وهم مذعورين من ردة فعل سيدهم. الجواري الثلاث، دنيا، حلا، ورزا، كنّ يقفن على بعد، يراقبن ما يجري بقلق بالغ.

دنيا، التي تلقت الصفعة في الداخل، كانت تمسح دموعها بأناملها المرتجفة، وهي تقول بخوف:

"لماذا؟ ماذا فعلتُ ليضربني هكذا؟ أنا فقط حاولت التخفيف عنه..."

حلا اقتربت منها واحتضنتها، وقالت بقلق كان واضحاً في عينيها:

"مولاي لم يكن هكذا أبداً... هناك شيء مختلف. لم أرَه يغضب بهذا الشكل من قبل."

رزا، التي كانت تبدو أكثر قلقاً:

"لقد أصيب كبريائه. لابد أنه تعرض للإهانة من الأميرة، وهذا قد دمّر فخره بنفسه..."

دنيا، نظرت إلى حلا وقالت بصوت مرتعش:

"هو لم يغضب هكذا من قبل. لابد أنه يشعر بألم فظيع جراء الإهانة التي تعرض لها... يجب أن نساعده."

فجأة تقدم أمبارك، رئيس الخدم، نحوهن بخطوات ثقيلة. عيناه كانتا مركزتين على الخيمة وهو يسمع صراخ مولاي بالداخل. وقف أمامهن، وبدون كلمة رفع يده إشارة لهن بالهدوء.

قال بصوت منخفض، وحازم:

"ابقين بعيدا، ولا تقتربن حتى يهدأ. هذا ليس الوقت المناسب للكلام."

دنيا، رغم خوفها، نظرت إلى أمبارك وقالت بصوت خافت:

"علينا أن نساعده..."

لم تكد تنهي حلا كلماتها، حتى شقّ الهواءَ صوتُ ارتطام قويّ. قدر رخامي ضخم طار من داخل خيمة مولاي، هابطاً بقسوة على الأرض أمام الجواري، لينكسر إلى شظايا متناثرة. تجمدت الفتيات في مكانهن، يعلو وجوههن الفزع، بينما جاء صوت مولاي الغاضب من داخل الخيمة، زاجراً بقسوة:

"ألم أخبركن أن تختفين عن وجهي؟ اغربن قبل أن أنهي حياتكن البائسة!"

تبادل الجواري نظراتهن بخوف وامتثال، ليغادرن المكان سريعاً، والخوف يُثقل خطواتهن. كانت دنيا تبكي بصمت، دموعها تنساب على وجنتيها، بينما تسند رأسها على كتف حلا التي تحتضنها بيدين مرتعشتين.

في المقابل، كانت رزا تلفّ ذراعيها حول جسدها بتوتر، وتدور في مكانها بقلق، وكأنها تحاول فهم ما يمكن فعله لتخفيف غضب سيدها.

*****

آن الأوان

بجانب أمه، استلقى العربي على ظهره متظاهراً بالاسترخاء، بينما عينه تجول ببطء بين نقوش وألوان سقف الخيمة. ومع ذلك، عقله كان أبعد ما يكون عن هذه التفاصيل. فمنذ الليلة الماضية، لم يعرف للنوم طعماً؛ فكرة الانتقام من صديقه الخائن شيخنه تسيطر على كل كيانه. قلبه يعتصر بالغضب، لكن شيئاً واحداً كان يشغله أكثر: "كيف؟" كيف يمكنه أن يجعل انتقامه مؤلماً؟ كيف يسلبه كل لذة، كل متعة اغتصبها منه بسرقته لزوجته هدى؟

يقبض العربي يده في لحظة شرود، يتخيل وجه شيخنه أمامه، وهو يطوي أصابعه كأنه يخنقه في الهواء.

كان الوقت يمر بسرعة دون أن يدرك العربي، الذي ظل غارقاً في أفكاره المظلمة والموحشة. كل لحظة تتسلل من بين أصابعه دون وعي، مستغرقاً في دائرة الانتقام التي تدور في ذهنه.

فجأة، همسات مألوفة تسللت إلى أذنه، همسات يعرف صاحبها جيداً. قطع تأملاته فجأة، وجلس بسرعة وكأن تياراً من الحذر جرى في عروقه. رفع رأسه ليرى شيخنه واقفاً عند باب الخيمة، يحييه بنظرة هادئة، وهو يتقدم بخطوات ثابتة نحو الداخل.

بابتسامة ودودة، ألقى التحية بأدب:

"السلام عليكم ورحمة الله، كيف حالك يا خالتي؟"

ردت أم العربي بابتسامة هادئة، وهي جالسة على جانب الخيمة، قائلة

"وعليك السلام يا ولدي، الحمد لله بخير، كيف حالك أنت؟ وكيف حال أهلك؟"

شيخنه جلس برفق على الأرض بجانب العربي، متحدثاً بلطف:

"الحمد لله، الأمور طيبة، وشكراً على سؤالك."

العربي جلس بجانبهما محاولاً أن يبدو مرتاحاً، لكنه في داخله كان يغلي. نظراته بين الحين والآخر تختلس إلى شيخنه، وكلماته تتدفق في عقله بحدة:

"يا لك من منافق! تأتي هنا تتظاهر بالوداعة، وأنت الخائن، السارق!".

شيخنه واصل حديثه بأدب مع أم العربي، يسأل عن أحوالها وعن بعض الأمور اليومية، بينما العربي يتابع المحادثة بوجه هادئ، محاولاً إخفاء ضجره. داخله كان يموج بكلمات مليئة بالغضب:

"كم أتوق لتمزيق قناع البراءة هذا عن وجهك، أيها الخائن!"

شيخنه حدق نحو العربي بجدية وقال بصوت منخفض وموجه:

"هل أنت متفرغ الآن؟ مولاي في حاجة إلينا."

العربي تغيرت ملامحه فور سماع الخبر، عاقداً حاجبيه بشيء من القلق والفضول. جلس جلسة أكثر اعتدالاً وسأل بنبرة مضطربة:

"ماذا به مولاي؟ هل هو بخير؟"

شيخنه ابتسم ابتسامة رقيقة، محاولاً التخفيف من وطأة التوتر، ونظر بود نحو والدة العربي قائلاً:

"استعد للذهاب، سأخبرك بكل التفاصيل ونحن في الطريق."

رغم أن الكلمات بدت مطمئنة، إلا أن العربي شعر بثقل غامض يحوم في الهواء. كان يعلم أن هناك شيئاً أكبر يجري خلف الستار، وبدأت الشكوك تدور في رأسه. بينما يراقب شيخنه بعيون مليئة بالحذر والترقب.

***

الليل قد بدأ يغطي المخيم بظلاله، والهواء البارد يتسلل بين الخيام، محمّلاً برائحة التراب الرطب. سارت خطوات العربي وشيخنه بخفة فوق الأرض الصلبة، وأصوات حفيف الرياح تهز الخيام من حولهما.

العربي كان يمشي بجانب شيخنه، يحدق في الأرض أمامه، كتفاه مشدودتان وكأنهما تحملان عبئاً ثقيلاً، بينما عيناه ضاقتا بنظرة تتأمل كل شيء حوله دون أن تراه حقاً. أما شيخنه، فقد بدا أكثر اتزاناً، يراقب الأفق أمامه بخطوات ثابتة. كل واحد منهما يحمل في قلبه مشاعر متناقضة، لكن كليهما كان يعرف أن الوقت ليس وقت البوح، وإنما وقت إظهار التكاتف خلف مولاي.

قطع العربي الصمت أخيراً، صوته مشحون بالغضب المكتوم:

"الأمير كان بإمكانه تزويجها، هو الحاكم... لم يكن بحاجة لرأيها أصلاً."

شيخنه هزّ رأسه موافقاً، وعيناه تراقبان الظلام من حوله:

"نعم، هو الأمير. كان يستطيع فرض الأمر بسهولة، ولكنه اختار أن يرفض مولاي، رجل من قبيلة كبيرة مثل العباس. هل تعرف معنى ذلك؟ هذا ليس مجرد رفض، هذه إهانة."

العربي ضيق عينيه، وهو يحدق في وجه شيخنه:

"مولاي ليس أي رجل... الأمير يعرف جيداً من يكون. كان بإمكانه ببساطة قبول الزواج وترك الأمور تسير دون هذا الإذلال العلني."

شيخنه رمق العربي بنظرة جادة، ثم رفع رأسه نحو السماء المظلمة:

"الأمير لم يفكر في العواقب. هو يعرف قوة مولاي ونفوذه، لكنه فضل إرضاء ابنته على الحفاظ على كرامة القبائل. رفض أحد مثل مولاي لن يمر دون عواقب، خاصة عندما يتعلق الأمر بمكانة قبيلة كالعباس."

العربي ضغط على شفتيه وهو يفكر في كلام شيخنه، يداه مشدودتان بقوة وكأنهما تستعدان للقتال:

"الأمير لعب بالنار، مولاي أحمق، لن يسكت عن هذه الإهانة."

شيخنه أومأ ببطء، وكأن كلماته تعمقت في قلبه:

"نعم، هو لن يمرر الأمر ببساطة."

بينما اقتربا من خيمة مولاي، كانت الهمسات التي تراودهما من هناك تزداد وضوحاً. توقف شيخنه لحظة، وعيناه تجولان حول المكان، وكأنه يتأكد من أن لا أحد يسمعهما. ثم انحنى قليلاً نحو العربي، وهمس بصوت منخفض لكنه حازم:

"العالم تغير يا عربي. الأمير... لم يعد كما كان. لم يعد يتحمل مسؤولياته كما ينبغي."

العربي نظر إليه بريبة، ولم يكن متأكداً مما يقصده شيخنه:

"ماذا تعني؟"

شيخنه ألقى نظرة سريعة نحو خيمة مولاي، ثم عاد بنظره إلى العربي، بصوت يفيض بالغموض:

"الأمير اختار أن يقف في طريق مولاي، وهذا خطأ كبير. ربما... آن الأوان لتغيير هذا الواقع."

العربي تجمد للحظة، قبل أن يرد بصوت حذر:

"أنت تتحدث عن التخلص من الأمير؟"

شيخنه لم يرد مباشرة، بل اكتفى بابتسامة مبهمة، وإيماءة صغيرة:

"الأمور تسير نحو وجهة واحدة. مولاي رجل قوي، له وزن كبير بين القبائل. والأمير يعلم أن وقوفه ضد رجل مثله لن يمر دون رد فعل... والحل في تجنب الأمر في اعتقادي يكمن في إزالة العقبة التي تقف في طريقه."

العربي عبُس، قلبه ينبض بسرعة مع تصاعد التوتر. كان يفهم تماماً ما يعنيه شيخنه، ولكن الفكرة كانت جريئة، بل خطيرة:

"إذا فعلنا ذلك... ستكون العواقب كبيرة. الأمير ليس مجرد رجل، هو رأس السلطة لكل القبائل في الإمارة."

شيخنه رد بابتسامة باردة، وذراعاه تتدليان بثقة على جانبيه:

"ومولاي ليس مجرد رجل عادي أيضاً. إذا أردنا تجنب تداعيات رفض الأمير لمولاي فلا مجال للخوف. علينا أن نتصرف بحكمة... وفي الوقت المناسب."

العربي رمق شيخنه بنظرة جانبية، محاولاً قراءة ما وراء كلماته. بدا وكأن هناك شيئاً أعمق مما يعترف به، وكأن شيخنه كان يسعى وراء شيء أكبر من مجرد دفاع عن مولاي. تلك الابتسامة الغامضة والحديث المتكرر عن التغيير لم يكن عادياً.

"ماذا يريد حقاً؟"

تساءل العربي في داخله، لكنه قرر أن يستغل الموقف ويجاريه.

"أنت محق، يا شيخنه"

قال العربي بصوت بدا هادئاً، لكنه كان يغلي من الداخل.

"مولاي ليس رجلاً يمكن تجاهله. لكن... التخلص من الأمير؟ الذي هو أعظم مكانة منه، والتخلص منه لابد وأن يكون لسبب أكبر."

شيخنه ابتسم ابتسامة خفيفة، وكأن العربي قد بدأ يفهم ما يدور في رأسه:

"في أوقات كهذه، الجراءة هي ما يحتاجه الرجال الحقيقيون. الأمير فقد بصيرته، وقراراته أصبحت شخصية جداً. إذا سمحنا له بالاستمرار، فستسقط سلطة القبائل كلها من يده وعندها سيتنافس الكل على مكانه. مولاي لديه القوة... لكن الأمر يحتاج إلى أكثر من القوة."

العربي أومأ موافقاً، لكنه كان يحاول أن يخفي نواياه الحقيقية:

"أكثر من القوة؟ أنت تعني... يحتاج إلى رجال مثلي ومثلك، أليس كذلك؟"

شيخنه استدار قليلاً نحو العربي، وعيناه تلمعان ببريق غامض.

"بالضبط. الأمر يحتاج إلى من يفهم اللعبة السياسية، من يعرف متى وكيف يتصرف. القوة وحدها لا تكفي، بل تحتاج إلى الحكمة والحلفاء الذين يمكنهم التحرك خلف الستار."

العربي شعر أن شيخنه يحاول أن يجذبه إلى شيء أكبر، ولكنه لم يكن ساذجاً. *"تحاول استخدامي؟"* فكّر في نفسه. لكنه ابتسم بخبث، وأظهر تعاطفاً زائفاً:

"نعم، التحرك في الظل هو ما يصنع الفرق. ونحن نعرف جيداً كيف ندير الأمور بهدوء... وبصمت."

شيخنه ضحك ضحكة قصيرة، وكأن العربي فهم الرسالة جيداً:

"أعلم أنك تفهم يا عربي، أنت دائماً كنت ترى الأمور من الزاوية الصحيحة."

العربي ضيّق عينيه، محاولاً استيعاب مدى عمق هذا المخطط. تسائل في نفسه:

"هل يحاول شيخنه أن يستخدمني كأداة لتحقيق أهدافه؟ أم أنه يرى فيّ شريكاً حقيقياً؟ بالتأكيد خائن مثله يفضل الخيار الأول."

لكنه قرر أن يستمر في التظاهر:

"إذا كان الأمر هكذا فأنا معك يا صديقي فلنستقل الوضع الهادئ، ولنعمل على تحين الفرصة."

شيخنه أومأ برأسه، ثم تابع سيره نحو خيمة مولاي بخطوات واثقة، بينما العربي خلفه، وعقله يغلي بالأفكار:

"إذا كانت هناك لعبة أكبر، فأنا لن أكون مجرد لاعب ثانوي فيها، وسترى ذلك أيها الوغد."

***

في خيمة مولاي الكبيرة، كان الضوء الخافت ينساب عبر الأقمشة، بدت الأجواء ثقيلة بفوضى المشاعر التي غمرت المكان.

الأثاث مبعثر، بسبب نوبة الغضب التي اجتاحت كل شيء. هناك في زاوية الخيمة، وسط تلك الفوضى، كان الجو مختلفاً. العاطفة تسللت ببطء، مثل نسمات الليل الباردة، بينما يستند مولاي على مرفقه بجانب فتاته دنيا التي استلقت بجانبه ببراءة.

كان منحنياً نحوها، أصابعه تتسلل بلطف بين خصلات شعرها الداكنة، وكأنها تحاول أن تمسح ذكريات اللحظات القاسية السابقة.

نظراته كانت مترددة بين الحنان والرغبة، عيناه تلمعان بتأمل عميق. دنيا، في المقابل، كانت هادئة، عيناها تلمعان بتلك النظرة التي لا تخفي شيئاً من مشاعر الرغبة الدفينة.

كل حركة منها، كل ارتعاشة في شفتيها، كانت تعكس شوقها واحتياجها للدفء الذي كان يحاول أن يعيده سيدها إليها.

بنبرة خافتة مشحونة بالاعتذار، همس مولاي:

"عزيزتي، أنا آسف فعلاً لما بدر مني نحوك."

كانت كلماته بطيئة، مترددة، لكنها تحمل دفء الاعتراف بالخطأ.

دنيا لم تنبس ببنت شفة للحظة، لكنها رفعت يدها لتلامس وجنته برقة، وكأنها تحاول أن تطمئنه. نظرتها كانت مزيجاً من العتاب الهادئ والرغبة في مسامحته. ابتسامة خفيفة تفتحت على شفتيها، وتحت تلك الابتسامة كان هناك شوق صامت.

"سيدي..."

بدأت ببطء، وكأنها تقيس كلماتها قبل أن تنطق بها:

"أعلم أنك لم تقصد، لكني أحتاج إلى سماع ذلك منك... أن تشعر بما أشعر به."

اقتربت قليلاً، حركتها خفيفة كالنسمات، ووضعت رأسها على صدره:

"كل ما أريده هو أن أشعر بأمانك، بحنانك."

مولاي أغلق عينيه للحظة، كما لو كان يحاول أن يمتص تلك اللحظة بكل تفاصيلها:

"أعدك، يا عزيزتي دنيا. لن أسمح لغضبي بأن يجعلني أعتدي عليك مجددا."

دنيا لم تتمالك نفسها فارتفعت وعانقته بحب، جسدها يتناغم مع حضنه، تشعر بالدفء الذي يغمرها وهو يضمها إليه. لكن اللحظة لم تدم طويلاً، إذ جاء صوت أمبارك من خارج الخيمة، يقطع سحر اللحظة. حمحم ثم قال:

"سيدي مولاي، أنا أعتذر على الإزعاج..."

ضاق مولاي من هذه المقاطعة، فتنهد بعمق وهمس بغضب مكتوم:

"اللعنة عليك أيها العبد الكريه."

ضحكت دنيا بخفة، نبرتها مليئة بالود والحنان، وهي تلمس وجهه بلطف:

"لا تقل هذا عن المسكين، لابد أن الأمر مهم."

التفت مولاي نحوها، الابتسامة لا تفارقه وهو يحدق في عينيها العميقتين، ثم قال بصوت مرتفع:

"ماذا هناك يا أمبارك؟ تعلم جيداً أنني أكره مقاطعة خلوتي."

تردد أمبارك قليلاً، وكأن التوتر قد استولى على نبرته، ثم تابع بصوت متلعثم:

"المعذرة يا سيدي، ولكن السيدين شيخنه والعربي حضرا لزيارتك... وهما يجلسان مع حلا ورزا في انتظارك في الخيمة الأخرى."

تنهد مولاي مرة أخرى، لكن هذه المرة زفر بحزن وهو ينظر في عيون دنيا التي كانت تضحك ببراءة، عيناها تلمعان وهي تتعلق بعنقه، وكأنها لا تريد لهذه اللحظة أن تنتهي. بصوت ناعم لكنه حازم، قال:

"حسناً، سأحضر بعد قليل."

***

الهدوء كان يسيطر على الخيمة بشكل شبه مخيف. كل ما يمكن سماعه هو أنفاس الحاضرين المتوترة وهم يتطلعون نحو مولاي، الذي كان يحدق بثبات في شيخنه. الأخير طرح سؤاله مباشرة ودون تردد:

"ماذا ستفعل بشأن رفض الأمير لك يا مولاي؟"

هذه الكلمات أحدثت توتراً واضحاً بين الجميع. كانت كالسهم الذي أصاب قلب الجو. مولاي لم يتكلم في البداية، بل مال إلى الأمام بهدوء والتقط حبة تمر. ثم دفعها في فمه بتأنٍ، ثم عاد ليستند على مرفقه فوق وسادة طرية، وكأنه يعطي نفسه وقتاً للتفكير.

بنبرة هادئة ولكن حازمة، التفت إلى الجواري وقال:

"يا بنات، أحتاج لبعض الخصوصية مع رفاقي، من فضلكن."

الجواري أومأن برؤوسهن في صمت ثم خرجن ببطء، حركاتهن متوترة والقلق واضح في عيونهن وهن يغادرن الخيمة. بعد أن خرجن، نظر مولاي إلى شيخنه بنظرات حادة مليئة بالعزم وقال بصوت مغموس بالغضب المكبوت:

"سأحصل على تلك الفتاة مهما كلفني الأمر. بعد تلك الإهانة التي تعرضت لها، لا مجال للتراجع."

شيخنه ابتسم ابتسامة هادئة، وكأنه كان ينتظر هذا الرد. جلس بثقة أكثر وعدّل من جلسته قائلاً بهدوء:

"والآن، أعتقد أنك موافق على ما اقترحته عليك سابقاً."

تنهد مولاي بعمق، عينيه مركزة على الجوهرة اللامعة على خاتمه المنقوش. ببطء قال:

"نعم... أظن أنني سأمضي فيما اقترحته."

العربي، الذي كان يستمع بتركيز طوال الوقت، لم يستطع البقاء صامتاً أكثر. تحرك إلى الأمام قليلاً وقال بلهجة محملة بالريبة:

"انتظر لحظة. ما الذي كنتم تخططون له دون علمي؟"

مولاي نظر إلى شيخنه نظرة غامضة، وكأنه يمنحه الإذن بالتحدث. بعد لحظة من التردد، قال بهدوء:

"أخبره."

شيخنه تنهد بخفة، ثم التفت نحو العربي وأوضح له بتروٍ:

"كنت أحاول التوصل لاتفاق مع مولاي بشأن الخطة التي ناقشناها أنا وأنت سابقاً. لكنه رفض التدخل حينها، بدعوى أنه لن يتدخل في الشؤون الداخلية للقبيلة. ولكن بعد أن رفض الأمير طلبه للزواج، تغير الوضع. مولاي الآن مصمم على الحصول على ما يريد، ولو كان ذلك بالقوة."

العربي ضيق عينيه وهو يراقب مولاي الذي جلس على الأرض بحذر، أصابعه مشتبكة مع بعضها، ورأسه منخفض نحو الأرض وكأنه في تفكير عميق. شعر العربي بالغليان داخله، ولكنه أخفى ذلك خلف ابتسامة باردة وهو يفكر:

"شيخنه... أيها المخادع. كنت تسعى للسلطة طوال الوقت، والآن تحاول إقحام مولاي في خططك. بتُ متأكدا أنك أنت هو من أوحى له بفكرة الزواج من بنت الأمير."

بعد لحظة، التفت نحو شيخنه بابتسامة ماكرة وتظاهر بمعرفته بما يحدث قائلاً:

"خطوة جريئة منك بالفعل، شيخنه. يبدو أنك تعرف كيف تدير الأمور."

ابتسم الاثنان له قبل أن يتشابك الصمت بينهم للحظات. العربي، الذي كان يدرك تماماً أن هنالك شيئاً يدور خلف هذا الهدوء الظاهري، قرر كسر الصمت قائلاً بنبرة تخفي خلفها تساؤلاته:

"لكن يا شيخنه، بماذا سيساعدنا مولاي بالضبط؟"

شيخنه لم يتوانى عن الرد، فرسم على وجهه ابتسامة صغيرة قبل أن يجيب بثقة:

"دور مولاي بسيط. إنه الأغنى في هذه المنطقة، ونحن بحاجة إلى دعمه المالي حتى نتمكن من تحفيز جشع الآخرين لصالحنا."

في تلك اللحظة، نهض مولاي فجأة من مكانه ونفض وشاحه بتلك الحركة المهيبة التي يعرفها الجميع عنه، ثم خطا خطوات بطيئة وثابتة نحو باب الخيمة.

توقف للحظة وكأنه يزن الكلمات في عقله قبل أن يهمس بصوت مسموع، يحمل في طياته تحدياً واضحاً:

"أما آن لك أن تخبرنا بخطتك يا شيخنه؟"

شيخنه التقط السؤال بابتسامة ماكرة، عينيه تشعان بلمحة من الطموح الخفي، وملامحه ازدادت ثقة. قال بنبرة متوازنة بين الهدوء والغموض:

" بالطبع. ولكنها لم تكتمل بعد فالعنصر الأهم فيها مازال ناقصا... ألا وهو كبش الفداء."

مولاي التفت ببطء، حاجباه مقطبان، بينما تخللت الحيرة صوته، قائلاً بفضول لم يستطع إخفاءه:

"ماذا تقصد؟"

هنا تدخل العربي الذي كان يراقب الموقف بحذر، وعلى وجهه ابتسامة تحمل قدراً من الإدراك:

"هو يشير إلى أننا بحاجة إلى شخص يتحمل عواقب ما سنفعله، بحيث نظل نحن خارج أي تهمة، وأيدينا نظيفة."

شيخنه هز رأسه موافقاً، وعيناه تركزان على مولاي بمكر، قبل أن يبتسم بتلك الابتسامة الصغيرة المليئة بالثقة والخداع في آن واحد، قائلاً:

"تماماً... لا أحد سيجرؤ على التشكيك فينا إذا ما تم اختيار الشخص المناسب ليكون كبش الفداء."

مولاي، الذي ما زال واقفاً عند باب الخيمة، مرر يده على ذقنه بتفكير عميق. عبوس خفيف ارتسم على وجهه وهو يهمس لهم بصوت مسموع:

"ومتى ستعثر على من يتحمل تلك المسؤولية؟"

شيخنه، الجالس على وسادته، انحنى قليلاً إلى الأمام، وعيناه تحدقان في مولاي. كان يعلم أن هذا السؤال يثقل كاهل مولاي، وأن الأمر ليس بالسهولة التي توقعها. حرك يده ببطء، كأنه يزن كلماته بعناية، وقال:

"تلك العقبة... ما زالت تؤرقني. إيجاد ضحية ليس بالأمر البسيط."

الجو كان محملاً بالتوتر، لكن فجأة تدخل العربي الذي كان يجلس بصمت، مائلاً إلى الخلف بثقة كبيرة. نهض بهدوء، قامته الطويلة والمشدودة تُظهر كل تفاصيل جسمه، وخطواته ثابتة وهو يتجه نحو مولاي.

اقترب من مولاي، ووقف بجانبه، ثم ابتسم ابتسامة خبيثة، عينيه تشعان بتلك اللمعة التي تعكس شره الداخلي. بنبرة هادئة لكنها مفعمة باليقين قال:

"أعتقد أنني أعرف من سيكون ضحيتنا..."

تسمر مولاي في مكانه، حاجباه ارتفعا قليلاً من الدهشة والفضول. التفت نحوه ببطء، وكأنه يزن صحة ما سمعه. شيخنه، الذي كان يتابع المشهد بعينين حادتين، أشاح بوجهه نحو العربي وقال بفضول واضح:

"هل أنت واثق مما تقول؟ إيجاد شخص مناسب ليس بلعبة."

العربي اقترب أكثر من شيخنه، جسده ينحني قليلاً بينما يمد ذراعيه وكأنه يشير إلى سر كبير، وقال بصوت منخفض مفعم بالخداع:

"لا تقلق. إنهم عدة أشخاص مناسبون للأمر بكل تأكيد. وسيتحملون عواقب كل شيء دون أن يدركوا ما يحدث."

شيخنه رفع حاجبيه قليلاً وأومأ ببطء، وكأن الفكرة بدأت تتبلور في ذهنه. ثم قال بنبرة هادئة ومتفهمة:

"إذن، لدينا عدة أشخاص... ليس كما توقعت."

مولاي، الذي كان يراقب كل هذا بصمت، قال:

"من يخطئ في اختيار ضحيته، يكتوي بنار صنعته قبل الآخرين. هل تدرك معنى هذه الحكمة يا عربي؟"

العربي ابتعد خطوة إلى الوراء، عيناه مثبتتان على مولاي، قبل أن يضيف بابتسامة جانبية:

"دعني أوضح لك وستفهم..."

*****

وادان

مر أسبوع من الترحل الشاق، حتى بلغ صلاح وعبد الفتاح على مشارف مدينة وادان، المدينة العريقة التي تنبض بالعلم والحضارة، ويمتزج فيها عبق التاريخ بوهج الحاضر. وقف الإخوة للحظات على مشارف المدينة، ينظران بانبهار إلى مبانيها الحجرية الصامدة، التي بدت كأنها تحكي قصص الزمن وذكريات العلماء والمفكرين الذين مرّوا من هنا.

عندما دلفا إلى قلب المدينة، جذبتهما الشوارع المتعرجة المرصوفة بالحجر، والبيوت المتقاربة بأبوابها ونوافذها المزينة بنقوش عربية وزخارف تحمل طابعاً من الأصالة. كانت القوافل التجارية تتنقل بين الأحياء، تجلب معها رائحة البهارات والبضائع النادرة القادمة من بقاعٍ شتى، بينما تعالت أصوات التجار والمارة وهم يتبادلون الحديث والمساومة، ما أضفى على المدينة حركةً ونشاطاً لافتاً.

مضى صلاح يمشي بانشراح، وعيناه تتفحصان تفاصيل المكان بشغف لا يخفيه، بينما عبد الفتاح إلى جانبه يبدي إعجابه بأهل المدينة الذين بدوْ متعلمين ومحترمين، يتحلون بالبشاشة والرقي. كان الجو مفعماً بالهيبة، حيث كانت الأصوات تتناغم مع حفيف الرياح التي تتخلل الأزقة كأنها همسات التاريخ. وفي كل زاوية، كانت هناك مكتبات صغيرة، تحمل على رفوفها الكتب والمخطوطات التي بدت وكأنها كنوز تنتظر من ينقب عنها.

وبينما كان صلاح وعبد الفتاح يسيران بين الأزقة الضيقة، إذ برجلٍ طويل القامة، مرتدياً جلباباً بسيطاً وعمامة تُظلل ملامح وجهه، يقطع طريقهما بحماسة لا تخفى، وقد علت وجهه ابتسامة واسعة. صاح بصوت جهوري، جعلهما يتوقفان في مكانهما:

"أولاد عثمان! لقد شرّفتم وادان، مباركٌ مجيئكما!"

تجمع الناس من حولهم كأنما أفاقت المدينة على وقع هذا الخبر، وأخذوا يلتفون حول الأخوين بحفاوة لا تقل عن حماسة الرجل. تعالت التهليلات، وابتسم صلاح وعبد الفتاح وهما يردان التحية بتواضع، وقد أدهشهما هذا الترحيب الصادق من وجوه لم يسبق أن عرفوها، لكنها كانت تفيض بمشاعر القرب والمودة.

اقترب الرجل منهما أكثر وقال:

"أنا محمود، صاحب محل هنا في السوق، ولكن قبل ذلك، أنا واحدٌ من أبناء وادان الذين يعتزون بقدومكما. هلمَّا معي، فقاضي المدينة، وشيخها سيرفرف فرحا بمقدمكما."

سار الرجل أمامهما، وراح الحشد يفسح لهما الطريق كأنهما في موكب احتفالي، يقودهم محمود نحو دار الشيخ. كانت الدار بسيطة لكنها مهيبة، جدرانها شاهقة بنقوش تروي عبق الزمن، وقد امتزجت روائح الكتب مع بخورٍ يحترق ببطء، ناشراً في المكان أجواء من السكينة والسلام.

وما هي إلا لحظات حتى خرج الشيخ، رجل مسن بوجهٍ يعلوه نور الحكمة، وعينين تفيض بالدّفء والتواضع، كان جسده قد انحنى قليلاً من أثر السنين، لكن روحه بدت مشتعلة بالحياة.

مد الشيخ يده بحرارة، وضغط بيده على كتف صلاح قائلاً:

"أهلاً وسهلاً بأبناء عثمان. قد شرفتم دارنا وملأتم قلوبنا بالفرح. هذه الدار داركم، وأنتم ضيوفي هذه الليلة، ولا أقبل بغير ذلك."

أجاب عبد الفتاح، وعيناه تلمعان بالامتنان:

"نشكرك على كرمك، شيخنا. جئنا لوادان، فوجدنا ما لم نتوقعه من الحفاوة والود."

ابتسم الشيخ بحنوٍ وقال:

"لا شكر بين الأهل، وادان ليست إلا أرضاً تشتاق إلى أبنائها. وهنا، كل ضيف عليها هو من أهلها. تعالا، فالليل يطول، وعندي من الحكايات ما يضفي على مجلسنا نكهة لن تجدَاها في مكان آخر."

جلسوا معاً في الدار، وصدى ترحيب أهل المدينة لا يزال يتردد في آذانهما، وتفاصيل المدينة قد تغلغلت في ذاكرتهما كأنها تحيا فيهما، حتى غدوا جزءاً من روح وادان، في تلك الليلة العابقة بكرم الضيافة والأنس.

في الصباح التالي، خرج صلاح وعبد الفتاح من دار الشيخ القاضي، وأشعة الشمس الذهبية تتسلل بخجل بين الأزقة الضيقة لمدينة وادان، لتضيء الطريق أمامهما بلمسات دافئة. كان كلاهما يسير بخطى هادئة بين بيوت المدينة الحجرية، ذات الجدران العتيقة، التي بدت وكأنها تروي بصمت حكايات لا تنتهي عن قوافل ومغامرات وتجارات قديمة.

تبادل الشقيقان حديثاً مرحاً، حيث استعادا حكاية الغزال التي رواها القاضي في الليلة الماضية. ضحك صلاح بصوت خافت، قائلاً:

"أتعلم، لم أتوقع أن يكون للقاضي حسّ فكاهة بهذه الروعة! كانت حكايته مع الغزال هزلية إلى درجة لم أستطع معها التوقف عن الضحك."

ضحك عبد الفتاح بمرح، وعيناه تلمعان ببريق ذكريات الليلة الماضية، ثم قال:

"بالفعل، وكأننا كنا نشاهد مشهداً أمام أعيننا! كيف جسّد القاضي خطوات الغزال المسكين وهو يحاول الإفلات، وكأن القاضي نفسه هو الغزال."

أخذ الاثنان يواصلان السير بين الأزقة التي ازدادت ازدحاماً مع مرور الوقت. كان السوق قريباً، وبدأت روائح التوابل القوية، والأنسجة، والخشب المصقول، تنبعث من كل زاوية، ممتزجة بأصوات التجار وهم ينادون على بضائعهم بصوت حماسي.

وبينما صلاح يعيد ترتيب أفكاره طرح بجدية سؤالاً عن نوع الأقمشة والحُليّ التي ستنال إعجاب زوجته، توقف لوهلة وقال بتمعن:

"أتساءل، هل ستكون الأقمشة ذات الألوان الزاهية أفضل أم الأخرى؟ وماذا عن تلك الحُلي الفضية المزخرفة؟ ما الفرق بينها أصلاً؟"

عبد الفتاح، الذي كان قد التقط بجدية طرافة الوضع، أطلق ضحكة خفيفة وقال بسخرية:

"أوه، هل تعتقد أنها سترضى بأي شيء ستختاره؟! أراهن أنها ستنقلب على هديتك، وتقول لك بحزم: 'هذه ليست الألوان التي أحبها، وأين الأقمشة الفاخرة التي سمعت عنها؟'"

صلاح رمقه بنظرة خوف، فأضاف عبد الفتاح بابتسامة مكر:

"ثم ستتهمك بالبخل، وتقول إنك اشتريت أول ما وقع عليه نظرك، وكأنك في سباق للحاق بالقافلة التالية! وبالطبع، لن يفوتها أن تلومني أيضاً، وتقول إنني لم أنصحك جيداً."

ابتسم صلاح محاولاً التماسك، لكنه لم يستطع منع نفسه من الضحك وقال:

"أتعلم، ربما أنت محق! يبدو أنني سأواجه بعض المشاكل بهذا الشأن."

عبد الفتاح، بابتسامة عريضة، ربت على كتفه قائلاً:

"إذاً، لا داعي للعناء، اشتري ما يروق لك فقط، واتركني لأتحمل جزءاً من اللوم، لقد اعتدت على ذلك."

استمرا في السير، وضحكاتهما تتردد بين الأزقة، محاطة بنظرات المارة التي تتابعهما حتى دخلا إلى سوق الأقمشة.

توغل صلاح وعبد الفتاح داخل السوق النابض بالحياة، حيث ازدحمت أزقته الضيقة بأكوام الأقمشة المتراصة، والملونة بألوان زاهية تُغري العين وتُلهب الحواس. تقدم صلاح نحو بائع للأقمشة، وبدأ في فحص القطع واحدة تلو الأخرى، بينما نظر إليه البائع بنظرة تفحص، ليقول بلطف يحمل في طياته تحفيز البيع:

"أهلاً بكما، هذه الأقمشة أجود ما لدينا، تناسب الكرام والأعزاء."

ابتسم عبد الفتاح في اتجاه صلاح قائلاً بصوت منخفض:

"فلنرى إن كانت حقاً تناسب جيبك، أيها الكريم."

ابتسم صلاح، وأخذ نفساً عميقاً، ثم التفت إلى البائع قائلاً بلهجة فيها شيء من التحفّظ:

"وكم تطلب لهذا القماش؟"

ردّ البائع بسعر بدا لصلاح مرتفعاً بعض الشيء، فرفع حاجبيه وأخذ يعارضه قائلاً:

"لا أظن أن هذه القطعة تستحق هذا الثمن، ألا ترى أن السعر مبالغ فيه؟"

هنا بدأ البائع بمحاولة الدفاع عن جودة القماش، مؤكداً أنه من أفضل أنواع الحرير المجلوب من ضواحي الأندلس، يرافقه حديث مشوّق حول الرحلة التي قطعها القماش ليصل إلى هذا السوق. صلاح، محاولاً تخفيف السعر، تبادل الحديث معه بحذر، مستدركاً أن المساومة جزء من اللعبة، بينما عبد الفتاح يراقب بسخرية، مدعياً بأسلوب ساخر:

"أترانا نشتري قماشاً أم كنزاً مخفياً؟!"

وبعد أخذ ورد، وتبادل نظرات فيها من التحدي بقدر ما فيها من المرح، تم التوصل إلى سعرٍ جديد رضخ له البائع بعبارات استسلام مبتسمة، وهو يشد على يد صلاح قائلاً:

"صفقة رابحة لكما، لقد كسبتما الثمن المناسب."

وما إن أكملا مع بائع الأقمشة حتى توجها نحو الصائغ، الذي كان يعرض مصوغات فضية وذهبية تتلألأ تحت أشعة الشمس، وكأنها قطع زينة من صنع الأساطير. صلاح أمسك متفحصاً بإحدى القلائد الفضية المزينة ببعض الفصوص، بينما الصائغ يعدّد مزايا القطعة، ويروي حكاياتها بفخر، محاولاً أن يضفي عليها قيمة لا تُقدّر بثمن.

غير أن صلاح، بنبرة ساخرة موجهة نحو عبد الفتاح، قال:

"ألا يبدو أن الصائغ يبيع أحلاماً أكثر مما يبيع حُلياً؟"

ضحك عبد الفتاح وهمس:

"يبدو أننا لن نخرج من هنا إلا وقد خسرنا نصف ثروتنا! لكن لا *بأس، فالمرأة تستحق كل النفائس من الحلل والحلي."*

وهكذا استمر الإثنين في مساوماتهما، بين ضحكات مختلطة بجدية الصفقات، وأحياناً تعبيرات غير راضية من الصائغ، وأحياناً رضا مشوب بحذر من البائعين. كانت السوق تموج بتلك النقاشات الودية والنزاعات الخفيفة التي انتهت بابتسامات متبادلة، وكأنها جزء من تقاليد السوق العريقة.

عند عودتهما إلى دار القاضي بعد يوم طويل من التسوق والمساومات، كان صلاح وعبد الفتاح متعبين لكن مبتهجين بما حملاه من هدايا، وخصوصاً بالذكريات التي عاشاها في أسواق وادان. ولدى وصولهما، استقبلهما القاضي بحرارة وابتسامة واسعة، قائلاً بصوت عميق مليء بالكرم:

"أهلاً بضيفَي العزيزين، لقد أعددنا وليمة على شرفكما، فمقامكما هنا يُشرّفنا."

كانت الوليمة ممتدة في وسط الدار، حيث جلسا إلى جانبه في مجلس يفيض بالكرم، وتراصت الأطباق حولهما، تعبق برائحة اللحم المشوي والتمور الطازجة الزكية. أُحضرت أنواع متنوعة من الطعام، تُظهر كرم أهل وادان وبساطة نفوسهم التي تفيض سخاءً.

تبادل الشابان والقاضي حديثاً لطيفاً عن رحلاتهما وتجاربهما في المدينة، بينما كان القاضي يروي لهم قصصاً قديمة عن العلماء والتجار الذين جابوا هذه الأرض في العصور السابقة.

لاح الليل، وبدأت النجوم تتلألأ في سماء وادان الصافية. جلسوا حول النار في باحة البيت، وقد بدت شعلة النار واهنة لكنها دافئة، تشع في صمت الليل الذي يسكن الدار. وبينما كان القاضي يتحدث عن حياة السفر وأسراره، تلاقى نظر صلاح وعبد الفتاح، وكأنهما اتفقا دون حاجة للكلمات. في تلك اللحظة، بدا لهما القرار واضحاً تماماً.

التفت صلاح إلى القاضي وقال بحزم ولكن بنبرة امتنان:

"سنسافر مع أول إشراق للشمس، فقد حان وقت العودة."

هز القاضي رأسه بإعجاب واحترام، ثم قال بنبرة مليئة بالتقدير:

"ما شاء الله، قراركم حكيم يا بنيْ، لقد آنستماني بحق، ولكن الفراق للأحباب والجموع مصير محتوم."

ومع هذه الكلمات، أكملوا حديثهم تحت ضوء النجوم، واستعدوا ذهنياً لرحلة الفجر، مملوءين بذكريات وادان وبحفاوة أهلها التي ستظل حاضرة في ذاكرتهم ما حيوا.

في ساعات الفجر الأولى، بينما كانت النجوم تبهت ببطء، بدأ صلاح وعبد الفتاح بالاستعداد للسفر، وأصواتهم المنخفضة تتناغم مع الهدوء الذي يلف المدينة النائمة. حمّلا الأغراض بعناية على ظهري دابتين من الإبل، مدققين في وضع كل حزمة وثنية لضمان أن تبقى ثابتة على الطريق الطويل. رجال القاضي كانوا حولهم، يساعدون بصمت وإخلاص، يجمعون الحبال ويشدونها، ثم يتأكدون من أن الزاد والماء في متناول اليد.

وقف القاضي قريباً، يراقب التحضيرات بعينين يملؤهما التقدير والحنان. وعندما فرغ الإخوة من تهيئة الجمال، تقدم القاضي منهما وابتسم قائلاً:

"ليكن طريقكما مباركاً، أراكما عائدين بخير وسلام."

انحنى صلاح وعبد الفتاح له بامتنان، ثم قال صلاح وهو يشد على يد القاضي:

"نحمل معنا كرمك وطيب ضيافتك، ولن ننسى ما وجدناه في وادان من حفاوة وحكمة."

ودّعهما القاضي بود، ثم تراجع خطوة ليشاهدهما وهما يستعدان للرحيل. وعندما استقر الإخوة فوق ظهور الجمال، تطلع الاثنان إلى القاضي مرة أخيرة، قبل أن ينطلقا بخطوات مهيبة، يخترقان الأزقة الهادئة التي ما زالت تغفو تحت أغطية الليل الأخيرة.

كان أول خيط من خيوط الفجر يشق السماء، ليغمر الشوارع الحجرية ببريق باهت، بينما سار الجملان بخطوات وئيدة على الأرض. امتزجت أصوات خطوات الجمال مع أنفاس المدينة التي تستيقظ على مهَل، وكان صلاح وعبد الفتاح يشعران في تلك اللحظة بأنهما يحملان ليس فقط هدايا وتجارب، بل ذكريات عزيزة ونصائح سترافقهما على الدوام.

بعد مضي ساعة على الانطلاق، كان الإخوة يتقدمان عبر طريق متعرج يشق الهضاب المتناثرة، متجهين نحو الجنوب الغربي. كان عبد الفتاح يجلس مستريحاً على راحلته، نظراته تتأمل المسار بحيوية، ثم استدار بابتسامة نحو صلاح الذي كان يمشي بجواره على قدميه، وقال بخفة:

"أخيراً ستتزوج، يا أخي! هذا يسعدني حقاً."

ابتسم صلاح وألقى بنظره نحو الأفق، قائلاً بهدوء:

"يسعدني ذلك أيضاً."

اتكأ عبد الفتاح إلى الوراء، وأسند ظهره على الراحلة ورفع ساقه اليمنى فوق اليسرى براحة، ليكمل مبتسماً:

"وأنا سعيد أيضاً لأن زهراء رفضت ذاك العباسي، مولاي. فهو لا يروق لي."

ظل صلاح صامتاً، مستغرقاً في أفكاره بينما كان يمشي، مما أثار تعجب عبد الفتاح. فتابع متسائلاً بلهجة مشوبة بالدهشة:

"ألست سعيداً بذلك أيضاً؟"

أطلق صلاح تنهيدة خفيفة ورد قائلاً، وهو ينظر بعيداً:

"أحب زهراء مثلك، ولكن قرارها الذي أيّده أبي... ربما لم يكن الأنسب."

ارتفع حاجبا عبد الفتاح في دهشة مقاطعة:

"وما الخطأ في قرارها؟"

عندها تجهم وجه صلاح قليلاً، وقال بصوت ينمّ عن قلق:

"العباسيون لا ينسون الإهانة بسهولة، غضبهم عنيف، ولن يتركوا هذه المسألة تمر مرور الكرام. وحقاً، لا زلت مستغرباً كيف أن مولاي تقبّل الأمر دون أن يثير مشكلة."

تأمل عبد الفتاح كلمات صلاح واستشعر عمقها، لكنه لم يجد فرصة للاستفسار، فقد توقف فجأة عندما لمح أشخاصاً يقفون على بعد منهم، فتوجه بنظره إلى صلاح، وأشار نحوهم قائلاً:

"انظر، هناك من ينتظر في طريقنا."

توقف صلاح، وتفحص الرجال الذين كانوا بعدد الخمسة يقفون دون دواب أو عتاد للسفر، مما أثار شكه، فقال بصوت هادئ وحذر:

"هؤلاء بالتأكيد ليسوا مسافرين عاديين."

اقترب الأخوة بحذر، حتى صاروا على مسافة قريبة من الرجال. وبدون تبادل أي حديث، بادر الغرباء باستخراج سيوفهم التي لمعت تحت ضوء الشمس كأنها أنياب ذئب متعطش. تبسم صلاح بسخرية وقال بصوت مستفز:

"يبدو أنني كنت على حق، قاطعو طريق."

ضحك قائد المجموعة بضحكة قصيرة مليئة بالاستفزاز، وقال:

"من نكون ليس من شأنك، يا ابن الأمير."

رفع صلاح يديه بنبرة هازئة وقال:

"أعتذر، لكن ليس لدي وقت أضيعه مع حفنة من العاهرات."

تحول وجه القائد إلى غضب حارق، ووجّه سيفه نحو صلاح بغضب، وقال:

"ما رأيك أن نجعل لسانك الطويل أقصر؟"

بلمح البصر، اندفع القائد نحو صلاح رافعاً سيفه بضربة قاسية، لكن قبل أن يتسنى له تنفيذها، قفز عبد الفتاح من على دابته كالصقر، وسدد له ركلة قوية على فكه، حتى تطايرت أسنانه وأطاحت به أرضاً مغشياً عليه، أسنانه المتسخة تتناثر بين الحشائش الجافة كما لو أنها قطع نرد عتيقة.

ضحك عبد الفتاح بتحدٍّ وقال:

"يبدو أن أسنانك أضعف من أن تقطع لساناً."

تجهم الرجال الباقون من فعلته. وقبل أن يكمل صلاح جملته قائلاً:

"أرجوكم دعونا نمر بسلام. فنحن..."

إذا بصوت طلقة قوي تخترق الهواء فجأة، لتصيب أحد الجمال فسقط ميتا، بينما فرّ الآخر مذعوراً. التفت الأخان بسرعة باتجاه مصدر الطلقة، فرأوا رجلاً سادساً يرتدي لباساً داكنا، ويعتمر عمامة حمراء، جالساً القرفصاء فوق صخرة ضخمة، وهو يعيد تلقيم بندقيته بابتسامة عريضة تلمع أسنانه تحت ضوء الشمس.

قهقه عبد الفتاح وقال:

"يبدو أنك أخطأت الهدف، أيها اللص الكريه!"

ابتسم الرجل ذو اللحية القصيرة وهو يعبث بخصلة منها، وردّ قائلاً:

"ليتني لم أخطئ، لكنت وفّرت على رجالي عناء الإمساك بكما."

ابتسم صلاح بسخرية وهو ينظر إلى الرجال وقال، متظاهراً بالقلق:

"يبدو أن نهايتنا قد حانت، يا أخـي عبـد الفتـاح. فهـؤلاء اللصوص خطرون، ويغمى عليهم بسرعة أيضاً."

انفجر ذو العمامة الحمراء ضاحكاً من كلمات صلاح، ووقف بتعجرف، ثم قال:

"تسرّنـي مواجهتكما يا لقطاء الأمير!"

وما إن أنهى كلامه حتى رفع بندقيته المزخرفة، وأطلق طلقةً أخـرى فـي الهـواء. مـع صـدى الطلقـة، انبثـق مـن خلـف الشجيرات والأحجار الكبيرة رجالٌ كثر، كانوا مختبئين علـى امتداد المنطقة، ليحيطوا بالأخوين كجدارٍ بشريٍ هائل. يناهز عددهم الثلاثين، وكل منهم يحمل نظراتٍ مليئة بالتهديد، بـين أيديهم تلمع سيوفهم وأسلحتهم وكـأنهم يسـتعدون للانقضـاض على فريستهم.

تقلصت ملامح الأخوين في انزعاج من هـذا الحشـد المتأهـب حولهم. نظر صلاح حولـه بحـدة، ثـم انحنـى بسـرعة والـتقط سيف الرجل الملقى على الأرض، ورفـع السـيف عاليـاً وقـال بصوت عميق وخشن، ملؤه التحدي:

"إلـى الموت... هلموا إلـيّ يا معاتيه!"

رنّ صوت عبد الفتاح المرعب من خلفه وهو يصيح بالرجال بقوة، فارتجف بعضهم للحظة وتراجعوا خطوتين، لكنّهم لم يترددوا طويلاً، وانطلقوا نحو الأخوين في هجوم كاسح.

صلاح، المعروف بسرعته وخفته، كان يتحرك كالعاصفة بين خصومه. لوح بسيفه كالبرق، يصد هجمات السيوف المتدفقة نحوه، والشرر يقدح من اصطدام الأنصال. كان يقاتل بشراسةٍ تنمّ عن عزيمة صلبة، يتنقل بينهم برشاقة كأنه يؤدي رقصة الموت، ضربةً بعد ضربة، والرجال يسقطون ويتعثرون من قوة ضرباته.

لكن فجأة، في لحظة غفلة، شعر بألم حاد في كتفه؛ إذ أصابته ضربة من أحد الرجال. التفت صلاح بسرعة خاطفة، وعيونه تلمع بغضبٍ قاتل، أمسك بمعصم الرجل قبل أن يفلت، وسدد ضربة قاسية على ذراعه، شطرها بنصل سيفه بمهارة، فسقط الرجل على الأرض، يتقلب ويصرخ من الألم، بينما يتدفق الدم بغزارة من ذراعه المقطوعة.

في الجانب الآخر، هجم عبد الفتاح على رجل نحيل البنية، كالثور الهائج، فقبض على ساقه وسحبه من الأرض كأنه لا يزن شيئاً. دفعه بقوة رهيبة نحو رفاقه، الذين تلقوه بطعنات لا رحمة فيها، فسقط مضرجاً بدمائه، يلفظ أنفاسه الأخيرة.

شعر الرجال برعب شديد أمام تلك القوة المدمّرة، وترددوا لوهلة قبل أن يقتربوا منه. لكن عبد الفتاح لم ينتظرهم؛ استل

سيفه وضرب به أقرب رجل إليه. ارتطمت السيوف بقوة، فاندفع الرجل للخلف وسيفه يرتج بين يديه، وعيناه تملؤهما الصدمة. لم يضيع عبد الفتاح لحظة؛ تقدّم بطعنة سريعة في منتصف بطنه، فسقط الرجل مترنحاً في دمه.

اندفع الباقون نحوه بغضب لا يوصف، إلا أن عبد الفتاح واجههم بشجاعة جليّة، صائحاً بأعلى صوته تحدّياً لهم، يتبارز بضرباته التي كانت كالمطر، تقطع وتطعن بلا هوادة.

استمرت المعركة للحظات أخرى مشتعلة، وبالرغم من أصابت الأخوين بجروح طفيفة، إلا أن ساحة المعركة سقطت فيها أجساد سبعة رجال من خصومهم، غارقة في دمائها. وقف الرجل ذو العمامة الحمراء بعيداً، يتابع القتال بوجه متجهم، وقال بغضب خافت يكاد يخنق صوته:

"هذان لن يسقطا قبل أن يجهزا على كل رجالي."

فجأة دوّت صرخة قوية من أحد رجاله، الذي تمزقت يده عندما باغته صلاح بضربة قاسية، فتطايرت أصابعه في الهواء. كان الغيظ يشتعل في عيني قائدهم، وهو يراقب المعركة باهتمام شديد، متمتماً لنفسه بملامح غاضبة:

"ذلك الأحمق يريدهما أحياء!"

وبلمح البصر، لقّم بندقيته بسرعة وصوّب نحو عبد الفتاح، الذي لم يكن متأهّباً لهذا الغدر. وفي لحظة خادعة، اخترقت رصاصة غادرة فخذ عبد الفتاح، ليتوقف جسده من شدة الألم وسقط سيفه من يده، ملطخا الأرض بالدماء. لم يترك الرجال الفرصة تمرّ، بل اندفعوا نحوه كالذئاب الجائعة، وطرحوه أرضاً رغم مقاومته الشرسة، إلا أن أعدادهم الكثيرة كانت كفيلة بتثبيته.

صلاح، الذي كان يقاتل بضراوة بعيداً، انتبه إلى صرخات شقيقه، فاستدار بسرعة نحو مصدر الصوت، إلا أنه وقبل أن يتمكن من الوصول، تلقّى لطمة قاسية على مؤخرة رأسه، ليجد الدنيا تدور من حوله. سقط على ركبتيه ويداه ترتعشان، والضباب يغشى بصره، قبل أن ينهار وجهه في التراب، والغبار يتصاعد أمامه مع أنفاسه المتثاقلة.

وبينما كان يرقد على الأرض، لا يقوى على الحركة، أبصر صلاح مشهد شقيقه عبد الفتاح وهو يصارع جموع الأعداء وحده، يصرخ فيهم متحدياً، ورأى القسوة التي استبدت بخصومهم وهم يثبتون أخاه بلا رحمة.

*****

لن أنسى لن أغفر

في عمق وادي لحنوك، حيث يرقص الليل على أوتار الغموض، اشتعلت نار صغيرة كأنها قلب يحتضر وسط بحر من الظلام. ألسنتها كانت تراقص الريح بهدوء، ترسم ظلالاً شاحبة على الوجوه المتعبة المحيطة بها.

كان صوت حفيف الأشجار وصفير الرياح بين الأخاديد هو السيمفونية الوحيدة التي عزفت في المكان، بينما تنبض الحياة الليلية بهمسات خافتة كأنها تخشى اقتحام الصمت.

جلس أربعة رجال حول النار، وجوههم غارقة في التوتر والحزن. لحبيب ورفاقه كانوا يعيشون خيبة مريرة، اختفاء سالم الذي خيب آمالهم في لحظة. ترك فراغاً لا يملأ.

ومع ذلك، لم يكن اختفاؤه هو الهم الوحيد الذي أثقل قلوبهم. فاكتشاف العربي لخططهم، جعل وضعهم أكثر تعقيداً. كلماته كانت كسكاكين مغروسة في قلوبهم، تُذكّرهم بأن كل خطوة قادمة قد تكون محفوفة بالمخاطر.

تشابك الصمت بينهم، كأن النار الصغيرة تحمل وحدها ثقل همومهم، وتراقبهم بلسانها المتراقص، شاهدة على ليلتهم المثقلة بالخيبة.

فجأة تدخل سعيد، المعروف بروحه المرحة، محاولاً تخفيف الأجواء بضحكة خفيفة:

"أراهن أن السيد سيقول عندما نعود فارغي الأيدي: 'أنتم لا تصلحون لشيء، حتى طفل رضيع لم تتمكنوا من جلبه!'"

انفجرت ضحكات خافتة بين الرجال، وبدت النكتة وكأنها قد كسرت قليلاً من ثقل الصمت الذي خيم عليهم. إلا أن لحبيب، الذي كان وجهه متجمداً بملامح باهتة، تنهد بعمق قائلاً:

"لو علم عمي بخبر موت السيدة، لن يكون قادراً على إلقاء تلك السخريات المضحكة مجدداً."

نظر إليه المختار بتفهم، ثم دفع سكينه في الجمر ليحركه قليلاً، متسبباً بتطاير شرارات صغيرة في الهواء. قال بصوت خافت لكنه مليء بالثقل:

"أنت على صواب يا لحبيب. السيد نادم على ما فات، وأخبار موت السيدة رحمها الله ستقتله حزناً."

هز لحبيب رأسه ببطء، وصوته بالكاد مسموع:

"سيتقطع قلب ذلك العجوز... ما زلت متردداً بشأن إخباره."

رفع المختار عينيه نحوه في صمت متفهم، بينما قاطعهم سعيد بحماسه المعتاد:

"دعونا نعيد له بعضاً من السرور الذي فقده، بإحضار ذلك الشاب له. سالم سيكون الأمل الذي يواسيه."

شعر المختار بالانسجام مع فكرة سعيد، واستعد للرد، لكن صوت خطوات سريعة طغى على صوت حديثهم، قادماً من خلفهم. في لحظة واحدة، تحرك الرجال الأربعة ككتلة واحدة، أسلحتهم مشدودة بأيديهم وعيونهم تبحث عن مصدر الصوت.

لـم يطـل انتظـارهم، إذ ظهـر عبيـد، صـاحبهم الخـامس، يركض نحوهم بسرعة وهو يهمس بتوتر:

"أطفئوا النار!"

بسـرعة خاطفـة، ألقـى لحبيـب معطفـه علـى النـار، فأطفـأ نورهـا فـي لحظـة. تقـدم عبيـد أكثـر، وعينـاه تبحثـان فـي الظلام، قبل أن يقول بصوت خافت:

"هناك أشخاص يتسللون نحونا... وهم مسلحون."

لـم ينتظـر المختـار أكثـر، همـس بنبـرة حازمـة، مشـيراً بأصابعه بحركات سريعة:

"تفرقوا وخذوا مواقعكم فوراً."

كـالظلال فـي الليـل، تفـرق الرجـال الخمسـة بـين الأشـجار، مختفـين عـن الأنظـار فـي لحظـات. لحبيـب انزلـق تحـت شـجيرة كثيفـة، يثبـت بندقيتـه باتجـاه موقـع النـار التـي أخمـدها للتـو. قلبـه ينـبض بسـرعة، والعـرق البـارد ينسـاب على جبينه. فكرة أن العربي قد غدر بهم لم تفارقه.

لـم يمـر وقـت طويـل حتـى بـدأت الظـلال تتحـرك فـي الظـلام. ثلاثـة رجـال ظهـروا، يتحركـون بحـذر، يتجهـون

نحـو موقـع النـار. كـانوا يتحـدثون بصـوت خافـت لا يمكـن تمييزه.

اقتـرب أحـدهم مـن موقـع النـار، انحنـى وأشـعلها مجـدداً. النيـران أضـاءت الوجـوه، لتكشـف عـن الرجـل الـذي وقـف بجانبها وقال بصوت مرتفع وواثق:

"أعلم أنكم هنـا. هـذا أنـا، العربـي. أخرجـوا، لقـد جئـت بسلام."

سـاد صـمت مشـوب بـالتوتر، والنـار الصـغيرة أضـافت بريقـاً مرعبـاً للمشـهد، حيـث تـوترت أصـابع الرجـال علـى أسلحتهم، مترددين بين الرد أو البقاء في مخابئهم.

مشهد المواجهة - تصاعد التوتر وثقة العربي

لحظـات ثقيلـة مـرت بينمـا كـان لحبيـب متمركـزاً فـي مخبئـه، عينـاه مثبتتـان علـى العربـي ورفيقيـه، وأصـابعه المتـوترة تلمـس زنـاد البندقيـة. فجـأة، التقطـت أذنـه صـوت عصـفور يغـرد فـي الظـلام. كانـت التغريـدات منتظمـة، ثـلاث مـرات ثـم ثـلاث مـرات أخـرى. للحظـة، تملكـه شعور غريب، فأدرك أن الصوت لم يكن طبيعياً.

"سعيد..." همس لنفسه، متذكراً موهبة رفيقه في تقليد الطيور. لكن رغم تعرف على الإشارة، لم يكن واضحاً له معناها.

بينما كان يفكر في الخطوة التالية، قُطع تركيزه عندما ارتفع صوت العربي من جديد، بنبرة واثقة ومفعمة بالتحدي:

"قلت لكم... أخرجوا. لن أؤذيكم. أريد الحديث."

عاد صوت تغريد الطائر مجدداً، بنفس الإيقاع، وكأن سعيد يصر على إرسال الرسالة ما. لم يستطع لحبيب تحمل المزيد من الانتظار، فقرر الارتجال. زحف بهدوء من مخبئه، يحاول تخفيف صوت خطواته قدر الإمكان.

بينما كان يتقدم ببطء بين الظلال، لمح المختار يخرج أيضاً من مخبئه. كان يسير بخطى واثقة، وكأن التوتر الذي أصاب الآخرين لا يعرف طريقه إليه.

توقف لحبيب في مكانه للحظة، يراقب المختار وهو يقترب من العربي ورفيقيه دون تردد.

عندما اقترب المختار بما يكفي لتبدو ملامحه تحت وهج النار الصغيرة، رفع العربي رأسه. ابتسامة

واسعة شقت وجهه، مليئة بالثقة والانتصار. وقبل أن يتحدث، نادى المختار بصوت عالٍ:

"لحبيب، يمكنك الخروج."

تردد لحبيب للحظة، لكنه قرر الانضمام، فخطا نحوهم ببطء، متيقظاً لكل حركة حوله. عندما اقتربت المسافة بين الجميع، تلاقت العيون. نظرات العربي المليئة بالثقة واجهت عيون لحبيب المتوترة ونظرات المختار المتزنة.

كسر العربي الصمت بابتسامة واسعة ونبرة لا تخلو من السخرية:

"أرى أنكم خفتم من تهديداتي... لقاءنا الأخير لم يكن لطيفاً، أليس كذلك؟"

تنهد المختار بعمق، ثم قال بنبرة صارمة تحمل في طياتها هدوءاً حازماً:

"ما فعلته لم يكن إلا احتراماً لموقفك. أرجو ألا تستخف بتقديرنا لك."

ظل العربي محافظاً على ابتسامته المستفزة، ورد بنبرة واثقة:

"أعتذر إن أسأت القول. جئت لأتحدث معك أنت ورفاقك بشأن أمر بالغ الأهمية."

تدخل لحبيب بنبرة خشنة مليئة بالحذر:

"نحن نستمع. تحدث."

رمقه العربي بنظرة حادة أثارت التوتر في المكان، وقال بصوتٍ عميق ينم عن جدية:

"أين بقية رفاقك؟ ما سأقوله يعنيكم جميعاً، ولن أكرر كلامي مرتين."

ساد الصمت، واكتفى لحبيب والمختار بالتبادل بنظرات متجهمة مليئة بالشك. أدرك العربي ترددهم وعدم الثقة في أعينهم، فتغيرت ملامحه تماماً. اقترب بخطوة ورفع صوته، قائلاً بنبرة مشددة:

"استمعا جيداً. لو كنت أضمر لكم سوءاً، لأبلغت الأمير منذ لقائنا الأخير. لكنني هنا لأنني أثق أن بيننا مصلحة مشتركة."

تبادل لحبيب والمختار النظرات مرة أخرى، كأنهما يعقدان اتفاقاً صامتاً. أخيراً، تنهد المختار بحدة، ورفع صوته قائلاً بحزم:

"يا سعيد، عبيد، إبراهيم... يمكنكم الخروج الآن."

لم تكد تمر لحظات حتى شقت أصوات خافتة طريقها من بين الأشجار، أعقبها ظهور مجموعة من الرجال يتسللون بحذر. حدق لحبيب فيهم بتركيز، ثم سرعان ما تجمدت عيناه عندما لاحظ غياب سعيد. فجأة، شق تغريد طائر متكرر الأجواء، لا يتوقف، وكأن الصوت يحمل تحذيراً. أدرك لحبيب فوراً فحوى رسالة سعيد.

بلا تفكير، صرخ بغضب، موجهاً بندقيته نحو العربي:

"مخادع!"

على الفور، استجاب رجال العربي ورفعوا أسلحتهم، والمختار ورفاقه فعلوا الشيء ذاته. الأجواء اشتعلت، والكل بات يصوب نحو الآخر، أصابعهم على الزناد، والأعصاب متوترة كوتر مشدود.

رفع العربي يديه ببطء، وصاح بصوت حاد:

"توقفوا! ما بك يا لحبيب؟ ماذا فعلت؟"

صاح لحبيب بعينين تشتعلان غضباً:

"هل تظن أننا حمقى؟ رجالك يحاصروننا!"

اتجهت نظرات الجميع نحو العربي، الذي رفع يديه للأعلى أكثر، وقال بصوت مليء بالدهشة والغضب:

"لا أعلم شيئاً عمّا تقول! لا أحد يحاصر أحداً!"

لم يكد ينهي كلامه حتى استدار بغضب نحو أحد رفاقه، وصاح:

"شيخنه! أخبرني الآن، هل ما يقوله صحيح؟"

كان شيخنه متوتراً، وعيناه تتنقلان بين لحبيب ورفاقه، وهو يصوب بندقيته نحوهم. ثم قال بصوت خافت ومتردد:

"بالطبع أحضرت رجالي... هل تظنني سأغامر بحياتي هكذا؟"

احتقن وجه العربي، وتقدم بخطوات سريعة نحو شيخنه، وانتزع البندقية من يده بعنف، وهو يصرخ:

"أحمق! كدت تُهلكنا جميعاً! قلت لك أن تثق بي، لا أن تُشعل النار في الهشيم!"

لم ينبس شيخنه ببنت شفة، متجاهلاً نظرات الجميع، غارقاً في صمت غامض. العربي، الذي بدا وكأنه

يحاول كسر حدة التوتر، أطلق تنهيدة مرتجفة وهو يرفع يديه ببطء قائلاً بنبرة مهادنة:

"اعذروني... لم يكن لدي علم برجال شيخنه."

لكن المختار لم يكن مستعداً للتساهل. صوب بندقيته بثبات نحو ناصية العربي، عاقد الحاجبين وملامحه جامدة كالصخر:

"أمر رجالك بالمغادرة فوراً... إن كنت ترغب في البقاء على قيد الحياة."

ابتلع العربي ريقه وأومأ برأسه قبولاً دون تردد. مرت لحظات ثقيلة قبل أن تظهر حركة من بين الأشجار، حيث انسحب رجال شيخنه بهدوء، يذوبون في الظلال كما ظهروا.

مع مغادرتهم، ظهر سعيد من مخبئه ببطء، ملامحه تعكس توتراً مكتوماً. التوتر في الأجواء كان ملموساً، وكأن الهواء نفسه صار أثقل. الوجوه متوترة، والعيون تراقب بحذر، والثقة منعدمة بين الطرفين.

العربي، بدبلوماسيته المعتادة، قرر التحرك بهدوء. جلس قرب النار ببطء، حافظ على نظرة ودية وهو

ينظـر للمختـار، بينمـا اسـتقر بجـواره شـيخنه، إلـى جانبـه رجل يضع عمامة زرقاء ويبدو أكثر غموضاً.

علـى الجانـب الآخـر، اختـار المختـار موقعـاً مقـابلاً للنـار. جلـس بهـدوء، لكـن عينيـه لـم تتركـا العربـي للحظـة. خلفـه وقـف لحبيـب مثـل الحـارس الشخصـي، يديـه علـى بندقيتـه وعيناه تراقبان كل حركة.

أمـا سـعيد، فكـان يراقـب بصـمت، بينمـا اختفـى بـاقي الرجـال فـي ظـلال الليـل الأسـود، محيطـين بالمكـان كشبكة خفية، مستعدين للتدخل عند أي إشارة خطر.

كسـر العربـي الصـمت بعـد لحظـة وهـو ينظـر بثبـات للمختار:

"أعـرف أن مـا حـدث لـم يكـن فـي مصـلحتنا جميعـاً... لكننـي هنـا لأتحـدث، لا لأقاتـل. دعونـا نحـاول فهـم بعضنا."

المختـار لـم يـرد مباشـرة، بـل نظـر للعربـي بعيـون بـاردة قبل أن يقول بنبرة منخفضة:

"الكلمات وحدها لا تعيد الثقة، يا عربي. لكن تحدث بما لديك."

رفع العربي نظره بابتسامة صغيرة لا تخلو من التوتر وقال:

"شيخنه فلتبدأ أنت."

شيخنه الذي كان صامتاً طوال الوقت، رفع حاجبيه ببطء وعقد يديه أمامه، مركزاً نظراته الثاقبة على المختار. بنبرة هادئة ولكنها تحمل لمسة من الثقل، قال:

"لقد أخبرني العربي أنكم تبحثون عن الشاب المفقود... سالم."

بمجرد أن وقع اسم *"سالم"* على مسامعهم، تغيرت أجواء المجموعة. انفرجت الأسارير على وجوه لحبيب والمختار وسعيد، وكأن بريقاً من الأمل قد أضاء تلك اللحظة القاتمة.

رد المختار بعد لحظة صمت قصيرة، محاولاً كبح حماسته بنبرة متزنة:

"سالم؟ نعم، نحن نبحث عنه. هل لديك أي خبر عنه؟"

شيخنه لم يرد على الفور، بل أمسك بطرف عباءته ببطء، وكأنما يعيد ترتيب أفكاره أو يستمتع بانتظار رد فعلهم. ثم قال بلهجة مشوبة بالغموض:

"قد تكون لدي بعض الأخبار، لكن عليكم أن تفهموا أن ما أعرفه ليس بلا ثمن."

العربي الذي كان يراقب الموقف بابتسامة خفيفة واثقة، أضاف:

"الأمر حساس بعض الشيء. وقد يكون صادما وصعب التصديق، لكنه الحقيقي تماما."

المختار، وقد بدأ نفاد صبره يظهر في تقطيب حاجبيه، قال بحزم:

"إذا كنتم تعرفون شيئاً عن سالم، فقولوه الآن."

لحبيب، الذي لم يتمالك نفسه، تدخل بلهجة يائسة ومشحونة بالعاطفة:

"العربي، أنت تعرف كم يعني لنا سالم. إذا كنت تعرف شيئاً، أرجوك أخبرنا، لا تبخل علينا بالحقيقة!"

شيخنه، بعد لحظة تردد قصيرة ولكنها محسوبة، انحنى قليلاً نحو النار، مشدداً على كلماته وهو يتحدث بصوت منخفض يحمل الغموض:

"الوقت معنى. ستعرفون ما أنتم بحاجته."

وقف العربي بهدوء، وتحرك بضع خطوات حول النار المشتعلة، بينما كانت الأعين تتابعه بترقب، تتقفى حركاته وكلماته. ثم استدار نحوهم، وصوته يخرج بنبرة مثقلة بالمعاني:

"كما تعلمون، قبيلتنا، أولاد شداد، لطالما اشتهرت بتنظيم ما يُعرف بالعرس الكبير، ذلك الحدث الذي يقام كل سبع سنوات. وبتزامن معه تُعقد مسابقة الشجاعة."

بدت علامات التوتر ترتسم على وجه لحبيب ورفاقه، بينما انحنى المختار قليلاً إلى الأمام، وكأنما يحاول استباق ما سيقوله العربي.

العربي تابع بصوت خافت، لكنه محمل بالحدة:

"منذ الأزل، كانت هذه المسابقة حكراً على رجال القبيلة وأبطالها. رجالٌ يتباهى بهم التاريخ. لكن هذا العام... حدث شيء غريب. الأمير قرر كسر التقاليد."

ارتفعت الحواجب في دهشة مكتومة، وسرت نظرات متبادلة بين الجالسين، فيما أكمل العربي بعد لحظة من الصمت وكأنها للتأكيد على أهمية ما يقول:

"سمح بمشاركة العبيد... قال إن ذلك سيضفي متعة على الجماهير. لكن فالحقيقة؟ الأمير لم يُدرك حينها خطورة ما فعله. أو ربما أدرك، لكنه تجاهل."

شيخنه، الذي كان يستمع، رفع رأسه ببطء ونظر إلى العربي نظرة تحمل تساؤلاً. تابع العربي، وكأنه يرد على السؤال غير المعلن:

"قرار الأمير لم يكن مجرد كسر تقليد. لقد كان... شرارة. شرارة أشعلت شيئاً بين العبيد. شعوراً لم يكن ينبغي أن يستيقظ."

لحبيب، الذي شعر أن الأمر يزداد غموضاً، لم يتمالك نفسه وسأل بنبرة مشحونة:

"وماذا تقصد بهذا؟ ما علاقة ذلك باختفاء سالم؟"

العربي استدار نحوه، نظراته ثابتة وباردة:

"سالم... كان أكثر من مجرد متسابق. كان رمزاً. عزيمته، وانتصاراته، أثارت شيئاً في النفوس. شيئاً يخيف البعض... أكثر مما تتخيل."

أكمل شيخنه موضحا بنبرة هادئة لكنها تحمل تحذيراً خفياً:

"حماس سالم، وتصميمه الذي لم يعرف الكلل، لم يكن مجرد مشهد في بطولة. كان شرارة أشعلت نيران الرغبة في نفوس من كانوا يشاهدون. كل ضربة وجهها، كل خطوة خطاها نحو النصر، كانت رسالة غير معلنة. رسالة تقول: الحرية ليست مستحيلة."

توقف للحظة، ناظراً إلى وجوههم وكأنه يقيس ردود أفعالهم، ثم أردف:

"أثناء أيام الحداد على والدة سالم. انتشرت الهمسات سريعاً بين العبيد. أحاديث عن العصيان، عن أحلام التحرر. ما بدأ كإعجاب عابر تحول إلى شيء أكبر، شيء لم يكن في صالح القبيلة... ولا في صالح القبائل الأخرى."

نظر شيخنه إلى المختار مباشرة، نبرته تتحول إلى جدية أشد:

"الفكرة تهدد النظام القائم بأكمله. وكل هذا بدأ بسبب قرار الأمير الذي لم يُدرك أبعاده."

لحبيب، الذي بدا وكأنه يحاول استيعاب الموقف، سأل بارتباك:

"لكن سالم؟ ماذا عنه؟ هل كان يعلم ما أثاره؟"

شيخنه ابتسم بمرارة، وقال:

"سالم مجرد شاب يافع وطموح. لكنه لم يكن على علم بما أوقده في قلوب أمثاله."

تدخل سعيد مقاطعاً بنبرة حادة:

"إذا، ما الذي حدث لسالم؟"

ابتسم العربي ابتسامة غامضة، ورفع يده بحركة خفيفة كمن يطلب الصبر:

"لا تتعجل يا سعيد. الأمور ليست دائماً كما تبدو. لكن ما يمكنني قوله هو أن الأمير، بطريقة ما، استوعب الوضع بسرعة. فقرر أن يتصرف... ولكم أن تتخيلوا ما الذي حدث بعد ذلك."

شعرت المجموعة ببرودة تجتاح الجو، وكأن كلمات العربي تحمل في طياتها سراً قاتماً. التفت لحبيب بسرعة، محاولاً تفسير الموقف بصوت متردد:

"تقصد أن الأمير هو السبب وراء اختفاء سالم؟"

نظر العربي إليه نظرة ثابتة، وواثقة وهو يقول:

"تماماً. في اليوم الأخير من البطولة، لم يكن هناك أحد في وادي لحنوك مع المتسابقين سوى رجال الأمير."

تبادل المختار وسعيد النظرات، والقلق يسيطر عليهما. فكرة أن سالم ربما قد لقي حتفه بدأت تترسخ في أذهانهم. التفت الجميع إلى شيخنه، الذي كان يراقب العربي بصمت طوال الحديث.

تحدث شيخنه أخيراً بصوت خافت:

"هذا ما تمكنت من استنتاجه بعد مراقبة كل ما يجري في القبيلة. لكن مهما حاولت، لا أستطيع معرفة ما الذي فعله الأمير بسالم."

تشابكت خيوط الصمت الثقيل بين لحبيب ورفاقه، وكأن الهواء ذاته أصبح معلقاً بشيء غير مرئي. عيونهم تجول في المكان دون أن ترى، وآذانهم تنصت لصدى نبضات قلوبهم، التي تدق بإلحاح كأنها تصرخ طلباً للخروج من صدورهم.

على الجانب الآخر، وقف شيخنه بجانب العربي، نظراتهما تراقب بتمعن ردة فعل المختار ولحبيب وسعيد. وجه العربي يحمل مزيجاً من الثقة والغموض، بينما شيخنه يبدو كأنه ينتظر لحظة الانفجار.

أمامهما، كان الرجال الثلاثة يغرقون في خليط من التدهور والخيبة، عاجزين عن فك طلاسم الموقف، غير قادرين على استيعاب الحقيقة أو التفكير في وسيلة لمواجهة الأمير أو التأكد من بقاء سالم على قيد الحياة.

بدت أعين لحبيب مثقلة بالحزن، وسعيد، رغم طبيعته المرحة، كان ينظر إلى الأرض وكأنها تبتلع روحه. أما المختار، فقد يحاول جاهداً أن يحافظ على صلابته، لكن ارتعاشةً خفيفة في أنامله كشفت عما يجري بداخله.

أخيراً، تنفس المختار بعمق، ثم رفع عينيه إلى شيخنه والعربي، محاولاً أن يبدو متماسكاً رغم التصدعات التي بدت واضحة في صوته:

"فلتقولا ما عندكما."

رنين الكلمات تردد في المكان، وكأنه إعلان عن استعداد المختار ورفاقه لمواجهة الحقيقة، مهما كانت قسوتها. الصمت الذي تبع ذلك كان أشبه برياح محملة بتوقعات ثقيلة، حتى قطعه العربي بابتسامة خفيفة، وكأنه كان ينتظر هذه اللحظة بفارغ الصبر. قال بنبرة هادئة تحمل غموضاً:

"أنا أدين لسالم بحياتي. وإنقاذه من قبضة الأمير ليس بالأمر الصعب، لكن..."

ارتفع حاجبا لحبيب في استغراب، وقطع الصمت بصوت متوتر:

"ماذا تقصد؟"

تحولت أنظار العربي إلى شيخنه، وكأنهما يتبادلان اتفاقاً غير مرئي. استقام شيخنه بخطوات ثابتة نحو النار، ثم قال بصوت حازم:

"نحن نريد التخلص من الأمير... وسنحتاجكم لفعل ذلك."

الكلمات نزلت كالصاعقة على لحبيب وسعيد، بينما شد المختار فكه في محاولة لاحتواء ردة فعله. ارتفع صوته بشيء من الحذر:

"قتل الأمير؟ هل جننتم؟ تعلمون عواقب هذا الفعل على القبيلة!"

رد شيخنه بثبات وكأن كلامه كان معداً مسبقاً:

"عواقب بقائه أسوأ. الأمير لم يعد حاكماً قوياً؛ قراراته العشوائية تسببت في اضطراب القبيلة، والقبائل الأخرى. وأفعاله الأخيرة، خاصة مع العبيد، جعلتنا على حافة انفجار داخلي قد يدمر كل شيء."

لحبيب، الذي كانت عينيه تتأرجحان بين العربي وشيخنه، همس بصوت خافت:

"وماذا عن سالم؟ هل نستخدم حياته كذريعة لتحقيق أهدافكم؟"

العربي، وقد عادت الابتسامة إلى شفتيه، أجاب بثقة:

"سالم ليس ذريعة، بل حافز. إنقاذه ليس منفصلاً عن خطتنا. لكن إن أردتم رؤيته حياً، عليكم باختيار الوقوف معنا، أو ترك الأمور تزداد سوءاً تحت حكم الأمير."

ساد الصمت للحظات، كأن الزمن توقف، ثم كسره المختار بصوت ثقيل محمل بالثقة:

"وما دورنا في هذه المؤامرة؟"

قبل أن يتمكن شيخنه أو العربي من الرد، اندفع لحبيب بلهجة متوترة:

"سيد مختار، لا يمكننا التدخل في..."

رفع المختار يده بحركة هادئة لكنها حاسمة، مشيراً للحبيب بالصمت. ثم استدار ونظر في أعينهم جميعاً، وقال بنبرة واثقة لكنها مليئة بالثقل:

"أنا قائد هذه المجموعة، والقرار بيدي. وسأفعل أي شيء لاستعادة سالم، حتى لو تطلب الأمر الخوض في المستحيل."

انكمشت شفتي لحبيب بامتعاض، لكن صمته كان أقوى من اعتراضه. أما شيخنه والعربي، فقد اكتفيا بالمراقبة بصمت، وكأنهما يقيّمان وزنه في هذه اللحظة المصيرية.

المختار عاد بنظره إلى العربي وقال بثبات:

"أخبرني... ما هو دورنا في هذا؟ والأهم عندي... كيف سأستعيد سالم؟"

ابتسم العربي ابتسامة خفيفة، ثم تقدم بخطوة ووضع يده على كتف المختار بحركة بدت كأنها محاولة لتعزيز الثقة بينهما، وقال بنبرة تحمل مزيجاً من الإخلاص والغموض:

"أولاً، أريد أن أعرف... هل أنت معنا يا أخي؟"

تردد صمت ثقيل، بينما كان لحبيب وسعيد يقفان خلف المختار، يترقبان رده بتوتر واضح. كان الجو مشحوناً بالتوتر، والأنفاس معلقة في الهواء.

المختار لم يُظهر أي تعبير على وجهه، لكن صوته جاء حاسماً وواضحاً:

"أنا معك يا عربي..."

بأنفاس متقطعة، جلس لحبيب في ظلال خيمة مهترئة على أطراف المخيم، حيث بدا المكان وكأنه انعكاس لحاله.

السماء ملبدة بالغيوم، والرياح تعصف بالقماش الممزق، محدثة أصواتاً تشبه الأنين. كان العمود الخشبي الذي يستند عليه يبدو وكأنه قديم ومتهالك، تماماً كروحه المثقلة.

يده اليمنى تقبض بشدة على العمود، بينما الأخرى ملتوية في حجره، مكسورة العظام، لا تقوى على الحركة. عيناه شاحبتان تحدقان في الفراغ، لكن ذهنه كان غارقاً في مشهدٍ لا يمكن نسيانه.

"أنا معك يا عربي..."

كانت كلمات المختار تتردد في رأسه، تتكرر بلا نهاية، كأنها شبح يطارده. قبضته اشتدت على العمود حتى سُمع صوت طقطقة الخشب. ملامحه التي كانت يوماً مطمئنة اكتست بالغضب والحزن.

همس بصوت خافت، كأنه يخاطب الفراغ:

"لماذا؟ كيف كنا بهذا الغباء؟"

في ذاكرته، الصور تظهر وتختفي كوميض البرق، صرخات مكتومة، رائحة الدماء التي امتزجت برمال الليل، وأصوات انفجرت ثم انطفأت فجأة.

كان يرى المختار، واثقاً كما كان دائماً، ثم سعيد بابتسامته التي لم تدم، إبراهيم بحزمه الذي تبدد، وعبيد بصمته الذي اختفى مع الظلام. كلهم... ذهبوا.

أغمض عينيه بشدة، محاولاً إبعاد الصور، لكنها كانت أقوى. عادت الذكريات كأنها سكين تنغرس في قلبه.

"هربت..."

خرجت الكلمة من فمه كاعترافٍ مذل.

"تركتهم هناك... ولم أمت معهم."

رفع رأسه ببطء، نظراته ممتلئة بألم لا يوصف. ذراعه المكسورة كانت تؤلمه، لكنها لم تكن شيئاً أمام الوجع الذي يشعر به في صدره.

الريـاح اشـتدت فجـأة، وكـأن الطبيعـة تشـاركه غضـبه. وقـف بصـعوبة، سـاقاه بالكـاد تحملانـه، وعينـاه تلمعـان بين دمعة حزن وشرارة انتقام.

ثـم فجـأة... صـوت أقـدام تهـرول. كـان الصـوت بعيداً لكنـه يقتـرب، وكأنـه مطاردتـه ستسـتمر لوقـت أطـول. تجمـد لحبيـب للحظـة، قبـل أن تعـود صـور رفاقـه فـي ذهنـه، وكأن أصواتهم تحثه على الهروب.

دمعـة سـاخنة سـالت علـى خـده، زم شـفتيه بـألم وقـال بهمسٍ مليء بالوعد:

"لن أنسى... ولن أغفر."

بخطـوات مترنحـة وثقيلـة، بـدأ يتحـرك هاربـا. الألـم فـي ذراعـه كـان يشـتعل، لكنـه تجاهلـه. الريـاح والظـلام أحاطـا بـه وهـو يختفـي بـين الظـلال. كـان يحمـل ذنبـه كعـبء لا يمكـن الـتخلص منـه، ومعـه وعـدٌ بالانتقـام، حتـى لـو كـان الثمن حياته.

***

قبـل سـاعات كانـت أشـعة الشـمس تتلاشـى تـدريجياً، واكتسـت السـماء بـاللون البرتقـالي والـذهبي فـوق قبيلـة أولاد شداد، وكأنها لوحة وداع لنهارٍ مضى.

بـدأ المخـيم ينـبض بالحركـة، اسـتعداداً لليلـة السـهر الأسـبوعية، حيـث تتحـول السـاحة الرئيسـية، التـي تستضـيف حفـلات العـرس الكبيـر، إلـى مركـز للحيـاة، مليئة بالأغاني، والأهازيج، والرقص.

كانـت الألـوان الزاهيـة للأقمشـة والأضـواء البسـيطة تـنعكس علـى وجـوه الجميـع، والهـواء معبّـق برائحـة الطعـام والتوابـل. أصـوات الطبـول بـدأت تتسـلل بخفـة إلـى كل ركن، تذكر الجميع بأن الاحتفال على وشك البدء.

داخـل إحـدى الخيـام الكبيـرة، جلسـت زهـرة وسـط صـديقاتها مـريم وجميلـة ونـوره. كانـت الخيمـة مضـاءة بنـار صـغيرة فـي الوسـط، ألقـت ظـلالاً ناعمـة علـى وجـوههن الضـاحكة. كـان الجـو مليئـاً بـالمرح والتعليقـات الطريفة.

"تخيّلن!"

قالـت مـريم بابتسـامة عريضـة، وهـي ترتـب أسـاورها الملونة.

"شاب تقدم لخطبتي هذا الصباح!"

انفجرت جميله ونوره بالضحك، بينما حاولت زهرة أن تكتم ضحكتها وهي تمسك بخصلة من شعرها الطويل وتعيد تصفيفها.

"وهل أخبرتيه؟"

سألت جميلة وهي تحاول السيطرة على ضحكتها.

"بالطبع أخبرته أنني متزوجة، بعد أن تحدث عن نفسه لمدة نصف ساعة!"

أجابت مريم، وانهار الجميع من الضحك مرة أخرى.

زهرة، رغم ضحكاتها، كانت هناك مسحة من السرحان في عينيها، وكأنها تشاهد شيئاً بعيداً لا تراه الأخريات. يدها التي كانت تمشط خصلات شعرها توقفت للحظة، وبدت وكأنها تستمع لشيء خارج الخيمة، شيء غير مرئي.

سألت نوره وهي تربت على كتفها بلطف:

"زهرة؟ هل تسمعيننا؟"

أجابت زهرة وهي تبتسم، محاولةً طرد ذلك الشعور الغريب الذي تسلل إلى قلبها فجأة:

"آه، نعم، بالطبع!"

فجأة اقتربت نوره من زهرة بابتسامة فضولية، تمسك بيدها بلطف وكأنها تحاول رؤية أغوار قلبها، وهمست قائلة:

"عزيزتي زهرة، أريد أن أعرف شيئاً."

توقفت للحظة قبل أن تضيف ببطء:

"لماذا رفضتِ السيد مولاي؟ فهو فارس أحلام تتمناه كل فتاة، أليس كذلك؟"

تلبّدت ملامح زهرة بشيء من التوتر، فالسؤال أثار موجة من الذكريات المزعجة. حاولت أن تخفي ارتباكها بابتسامة باهتة، لكن عينيها خانتها وهي تنظر بعيداً. أخذت نفساً عميقاً وقالت بصوت خافت:

"شعرتُ أنه... لا يناسبني. ربما كان أكثر مما أتمنى."

صمتت الفتيات للحظة، وكأنهن يحاولن فهم السر في كلماتها. لكن جميلة، التي كانت تستمع، قطعت الصمت بحدة ممزوجة بابتسامة ساخرة، وقالت، "أحسستِ؟ أم أنكِ هناك شخصاً آخر في قلبك؟"

صدى كلمات جميلة أصاب زهرة كطعنة خفية، فارتعشت يدها التي كانت تمسك بمشط صغير. نظرت إلى جميلة، لكنها لم تجد الكلمات لترد.

شعرت مريم بالتوتر من تعليق جميلة، فردت بزجر واضح وهي تحاول تهدئة الموقف:

"ما الذي تقصدينه، يا جميلة؟ لا تتجاوزي حدك."

جميلة، لم تكترث لكلمات مريم، اكتفت بابتسامة خبيثة وأرجعت رأسها للخلف قليلاً، وكأنها تستمتع بالوضع. رفعت حاجبيها وأردفت بنبرة مستفزة:

"أنا فقط أقول الحقيقة. الجميع يعرفون عن حب زهرة لذلك العبد."

هنا توقف الزمن للحظة. تحول وجه زهرة من التوتر إلى شحوب قاتم، وكأن جميلة ألقت بكل ثقل الماضي أمام عينيها. صمتت الخيمة بأكملها، وحتى الرياح في الخارج بدت وكأنها توقفت لتستمع.

تقدمت نوره خطوة إلى الأمام، وكأنها تريد حماية زهرة، وقالت بغضب:

"جميلة، هذا يكفي! نحن هنا لنستمتع بوقتنا، وليس لنخوض في السخافات."

لكن زهرة رفعت يدها لتوقف نوره. نظرت إلى جميلة مباشرة، عيناها مزيج من الحزن والألم. قالت بصوت منخفض:

"مهما يكن لن أبيع قلبي لمن لا يستحق."

ابتسمت جميلة ابتسامة ماكرة، ثم قالت بصوت مستفز وبارد:

"لم أكن أعتقد أن قلوب بنات الأمراء رخيصة لينالها العبيد."

زهرة لم تقدر على احتمال المزيد. أخذت نفساً عميقاً، وبدون أن تنظر لأي منهن، نهضت بسرعة وغادرت الخيمة بهدوء. خطواتها كانت سريعة وثابتة، وكأنها تهرب من خنجر يطعنها. خلفها.

لم تمضِ سوى لحظة واحدة حتى التفتت مريم بغضب نحو جميلة. وبدون تفكير، رفعت يدها ووجهت لها صفعة قوية، أسقطت جميلة على الأرض. عينا جميلة كانتا متسعتين بالصدمة، وكأنها لم تصدق ما حدث.

صرخت مريم بصوت مشحون بالغضب والقهر:

"أنتِ بلا ضمير ولا أخلاق، يا جميلة! كيف تجرئين على قول شيء كهذا؟ عيبٌ عليكِ أن تؤذي مشاعرها بهذه الطريقة!"

خرجت مريم من الخيمة بسرعة، تتبع خطوات زهرة التي كانت تسير ببطء، وكأن ثقل العالم بأسره قد انصب على كاهلها.

كان الهواء يحمل نسمات خفيفة، لكنها لم تفلح في تخفيف وطأة الحزن الذي يغشى وجهها. عندما اقتربت منها مريم، لاحظت ارتجاف يديها ونظرتها الشاردة.

قالت مريم بصوت يملؤه القلق والاهتمام، وهي تضع يدها على كتف زهرة بحنان:

"زهرة، لا تدعي كلمات تلك الغبية تجرحك. أنتِ أقوى من أن تهزك ألسنة فارغة."

رفعت زهرة وجهها قليلاً، وعيناها تلمعان بدموع امتزجت بالكحل، مما أضفى على ملامحها بريقاً حزيناً. أجابت بصوت مختنق:

"لا يهمني كلامها، ولكن..."

توقفت، وكأن الكلمات تخونها، ثم أشاحت بوجهها قليلا. اقتربت مريم أكثر وقالت بلطف:

"أنا هنا، زهرة. قولي لي ما يثقل صدرك."

تنهدت زهرة بعمق، محاولة السيطرة على ارتجاف صوتها، وقالت بصعوبة:

"أشعر أنني عالقة... كأن الوقت توقف بي هناك، في تلك اللحظة. لماذا كل شيء يذكرني به؟"

صمتت للحظات، وكأن الكلمات عالقة في حلقها، تبحث عن شجاعة الاعتراف:

"لماذا... لماذا يؤلم بشدة؟"

بكت بصمت، وكأنها تحاول قمع انفجار مشاعرها. شعرت مريم بوخز في قلبها لرؤية صديقتها بهذا الضعف، فاحتضنتها بقوة، تربت على ظهرها بلطف وهمست في أذنها:

"لأن الحب الحقيقي يترك بصمته. يمنحنا الحياة، لكنه أيضاً لا يُحتمل عند الفقد."

مر الوقت وكأن العالم بأسره قد توقف، لا صوت سوى أنين زهرة الهادئ وطمأنة مريم التي كانت كنسيم يداعب قلباً مثقلاً. بعد لحظات، تراجعت مريم قليلاً، تنظر في عيني صديقتها، وقالت بحزم يمتزج بالأمل:

"أنا أؤمن أنه إذا كان على قيد الحياة، سيعود. وأنتِ تحتاجين أن تصدقي هذا."

لم تجب زهرة، لكن نظرة عينيها تغيرت. لم يكن الأمل كبيراً، لكنه كان كافياً ليشعل نوراً صغيراً في أعماقها.

لم تمضِ سوى لحظات حتى كانت مريم وزهرة تسيران بخفة باتجاه خيمة الأمير، تضحكان بصوت مرتفع على تعليقات مريم الساخرة عن جميلة، الطريق كان يعج بالحركة، وصوت الأحاديث وضحكات الناس تملأ المكان.

وسط هذا الزحام، ظهر بياني، صديق عبد الفتاح، فجأة أمامهما، بابتسامة ودودة ترتسم على وجهه. ألقى عليهما نظرة سريعة وقال بصوت هادئ:

"إلى أين تتجهان بهذه السرعة؟"

لم تفوت مريم الفرصة للمزاح، وردت بسخرية خفيفة، وهي تشير إلى زهرة:

"نحن في طريقنا لإصلاح ما أفسده الكحل على وجه زهرة. كما ترى، لقد أبدعت في تشويه نفسها!"

ابتسم بياني، ونظر إلى زهرة نظرة عابرة جعلت وجنتيها تشتعلان خجلاً، فخفضت عينيها في ارتباك. قال بلطافة:

"هناك مسابقة مصارعة ستُقام قريباً، وعلمت أن العربي ابن الشيخ الفرفار سيقصّ على الحضور قصته مغامرته في وادي لحنوك عند الافتتاح. هل تنويان الحضور؟"

أجابت مريم بسرعة، وقد ارتسمت على وجهها ملامح الحماس:

"بالطبع سنحضر! لا يمكن أن نفوّت ذلك."

هزّ بياني رأسه بخفة واستطرد:

"إذن عليكم الإسراع. الحشود تتدفق إلى الساحة، وقد لا تجدون مكاناً مريحاً إذا تأخرتما."

تبادلت الصديقتان النظرات، ثم التفتتا حولهما لتريا الجموع التي بدأت بالتوجه نحو الساحة. قالت مريم، وهي تشد على يد زهرة:

"شكراً لك، فلنسرع يا زهرة!"

*****

الخدعة الكبرى

مع حلول الليل، وتحت أضواء المشاعل المتراقصة في ساحة الاحتفال، كان جمع غفير من الناس قد التف حول دائرة صغيرة وسط الساحة، يملؤهم الحماس والشغف لرؤية المصارعة المنتظرة. زخم الحشد وتعالي الهتافات أعطى للجوّ نغمة خاصة، حيث امتزجت الأصوات والحركات بمزيج من الترقب والإثارة.

في هذه اللحظة، تقدم العربي بخطوات واثقة نحو الدائرة، محاطاً بعيون تتابعه بانبهار ووجوه تتطلع إلى رؤيته. وقف بثباتٍ وعنفوان، مبرزاً أناقته التي تجلّت في زيه التقليدي المُحكم، وزينته التي كانت تضفي عليه سحراً خاصاً. انعكس ضوء المشاعل على ملامحه الوسيمة، فبدا وجهه يتوهج تحت ظلال النور، يلمع بإشراقة متقدة زادت من انبهار الحشد به.

ومع ارتفاع الهتافات والصرخات المشجعة باسمه، رفع يده بهدوء مشيراً للجميع كي يهدأوا. بلمسةٍ من الثقة وجاذبية لا تقاوم، استطاع أن ينال الانصياع التام؛ فتوقف الجمهور متلهفاً لكلماته، كأنما كانوا ينتظرون حديثه بفارغ الصبر.

وبينما ساد الصمت قليلاً، سأل أحدهم بحماس عن تجربته الأخيرة في وادي لحنوك، ليبتسم العربي ابتسامة واثقة قبل أن يقول بصوتٍ عميق:

"سأروي لك كل التفاصيل."

كان لصوته وقعٌ أخاذ، ازدادت نظرات الإعجاب من حوله، وأصوات الاستحسان تتعالى، ليرتفع الحماس في القلوب، وتزداد اللهفة لسماع تفاصيل مغامرته الشجاعة.

مع ارتفاع سيل المشاعر المتقدة في ساحة الاحتفال، رفع العربي صوته ليصل إلى مسامع الجميع قائلاً بابتسامة واسعة على وجهه:

"لقد كانت تجربة فريدة، تجربة قررت خوضها رغم خوفي من تلك الوحوش. لكني لم أستطع التخلف عن الرجال أو تركهم ينالون المجد وحدهم. في ذلك اليوم، لم يكن عدوّي إلا الخوف الذي تملكني، ثم ذلك الوحش المفترس الذي حاول افتراسي."

توقف للحظة، وعيناه تجولان في وجوه النـاس المتشـوقة، ثـم أضاف بصوت عميق يحمل اعترافاً شجاعاً:

"لكن، هناك شيء أريد أن أستغله هذه اللحظة لأعبر عنه... وهو شكري العميق لذلك الشاب الشجاع الذي أنقذ حياتي، ومن لا يعرفه؟ إنه سالم البطل!"

ما إن نطق باسم سالم حتى اهتز المكان بصيحات تشجيع ومحبة سالم، تصاعدت من كل الجهات، مفعمة بالاحترام والإجلال له. ومع حماس الحشد، رفع العربي صوته ليعلو فوقهم قائلاً:

"أقسم لكم أنني لن أنسى جميله ما حييت، وأتمنى أن يعود لنا سالماً يوماً ما."

فجأة، صاح أحد المتحمسين من بين الجموع باندفاع:

"أحبك يا عربي، أنت الأفضل!"

ابتسم العربي وأشار نحوه بإصبعه، وقد امتلأت عيناه بالدموع، وصاح بحب وصدق:

"وأنا أيضاً أحبك يا أخي!"

تلك الكلمات لمست قلوب الحاضرين، فصاحت الأصوات بعشوائية وهستيريا لا توصف، وعمّت المكان فوضى من الصيحات والتصفيق والدموع التي امتزجت بحماس لا يهدأ. وبعد لحظات، هدأت الصيحات تدريجياً، وأشار العربي بإشارة بدء المصارعة.

جلس في مكانه، يراقب بعينه، بينما كان العبيد قد بدأوا العراك بقوة وإصرار، عارضين شجاعتهم التي أشعلت الحماس في قلوب المشاهدين. مع كل ضربة وكل حركة، كانت الهتافات تتعالى، كأنما كان الجميع جزءاً من هذا النزال العنيف.

وبينما كان العربي يتابع المصارعة، لفت انتباهه رجل في ملابس سوداء، وجهه مقنع، يقف بين الحشد، يراقبه بصمت. حدق العربي به لبرهة، يتبادلان النظرات بحدة، لكن الرجل اختفى سريعاً بين الجموع، متسللاً حتى تلاشى عن الأنظار، تاركاً العربي في حالة من التأمل.

***

بينما كان الأمير واقفاً في منتصف خيمته، تقدمت زهرة ومريم نحوه وهما تحملان عباءته البيضاء. رفعت زهرة طرفي العباءة بعناية فوق كتفيه، فيما قامت مريم بلف العمامة البيضاء حول رأسه. كانتا تعملان بتناغم هادئ، وهما تعكسان الحنان والاحترام في كل حركة.

راقبت فاطمة المشهد، وابتسامة خفيفة تعلو وجهها، ثم قالت بمزاح رقيق:

"أظن أن بناتي دللن الأمير كثيراً اليوم، ألا تشعرن أنكن تبالغن!"

ضحك الأمير وهو ينظر إلى زهرة ومريم بحب، قائلاً:

"دلالهن نعمة، وليس لأحد أن يشكو من هذا."

تبادلت زهرة ومريم نظرات ضاحكة، فيما أحمرّ وجه مريم خجلاً. فقالت زهرة بتواضع:

"هذا أقل ما نقدمه، وأنت تستحق يا أبي العزيز."

أخذت فاطمة تتحدث بعاطفة

"لولا وجودكما يا زهرة ومريم لكان المخيم قد فقد كثيراً من دفئه."

ثم تابعت بعينين يشعّ منهما الشوق:

"لو أن صلاح وعبد الفتاح هنا الآن... لكانت الفرحة مكتملة."

شعر الأمير بلمحة حزن وحنين في كلماتها، فقال بنبرة مشجعة:

"سيعودان قريباً، ومعهما فرحتنا جميعاً. لدينا بنات كالذهب، ورجال كالصخر، وأيامنا دائماً ستبقى مضيئة بفضلهم."

هزت مريم رأسها موافقة، ونظرت إلى زهرة وهي تبتسم، قائلةً بحب:

"هذا البيت، هذه اللحظات، ليست إلا بركة ونعمة. جعلتني سعيدة منذ يومي الأول هنا."

احتضنت زهرة مريم بحب، بينما الأمير وزوجته ينظران إليها بسعادة غامرة، يحيطهما دفء العائلة. بعدها قالت زهرة بابتسامة ماكرة:

"وماذا عنكِ يا أمي؟ دعينا ندللكِ أيضاً حتى لا تشعري بالغيرة."

ضحك الأمير قائلاً:

"أكاد أجزم أن هذا سيعجبها كثيراً."

عمّت الضحكات أجواء الخيمة، ثم تحرك الأمير نحو باب الخيمة، محاولاً فهم سبب هذا الهدوء غير المعتاد. خرج ببطء ونظر حوله، فوجد الأزقة خالية بشكل غريب، أصوات الاحتفال تتردد من بعيد، تتمايل مع نسمات الرياح. ابتسم بتساؤل همس لنفسه:

"يبدو أن الجميع متحمس جداً الليلة."

نفض كمه وابتسامة خفيفة ترتسم على وجهه، ثم عاد إلى داخل الخيمة، معتقداً أن كل شيء بخير. لكن ما إن دخل حتى تجمدت ملامحه من هول المفاجأة.

أمام عينيه، كانت زهرة، فاطمة، ومريم يجلسن على ركبهن، رؤوسهن منخفضة وعيونهن مليئة بالخوف. وقف بجانبهن خمسة رجال ضخام، يرتدون ملابس سوداء وأقنعة تغطي وجوههم، كل منهم يمسك بخنجر لامع على رقاب النساء.

سكنت اللحظة، وصمت صوت الضحكات، واستحالت خيمة الأمير إلى مكان يكتنفه الرعب والخطر.

اقترب أحد الرجال من الأمير وقال بنبرة باردة لا تخلو من التهديد:

"خطوة واحدة، وستكون حياتهم الثمن."

رغم الخوف الذي اجتاح قلب الأمير على أهله، لم يمنعه ذلك من إطلاق تهديداته وشتائمه قائلاً بصوت مليء بالغضب:

"أيها الأوغاد، كيف تجرؤون على التعدي على أهلي؟ ألا تدركون من أكون؟"

تقدم أحد الرجال نحو الأمير، يحمل سلاسل وأقفالاً، في حين قال آخر بلهجة باردة:

"لا يهمنا من تكون. سلّم نفسك لهذه السلاسل، وربما... قد نعفو عن أهلك."

اشتعل غضب الأمير وشعر بإهانة عميقة. نظر إلى عيني ابنته زهرة التي توسلت إليه بنظراتها، لكنه استدار نحو الرجل وقال بحدة:

"إذا أصبتم أيّاً منهن بضرر، سأمحيكم من الوجود، أيها الجبناء."

تقدم الرجل المقنع نحو الأمير بخطى ثابتة قائلاً:

"كفاك تضييعاً للوقت، أيها العجوز."

بتحدٍّ، اندفع الأمير بتهور في محاولة للإمساك به، لكن الرجل تراجع بخفة، تاركاً الأمير يتعثر ويسقط أرضاً على وجهه.

أشار المقنع بيده إلى أحد رفاقه، والذي بدوره جذب شعر مريم، ثم، دون رحمة، مرر شفرة خنجره على حلقها، فشقّ أوتارها بعنف.

تدفق الدم بغزارة، وسقطت مريم تتقلب على الأرض، تتشبث بأنفاسها الأخيرة، تصدر شهقات متقطعة وألماً لا يُوصف.

زهرة، وقد كانت شاهدة على هذا المشهد المروع، صرخت بأعلى صوتها، وهي تبكي وتنادي باسم صديقتها الغالية، تراقب جسدها الذي ارتجف فوق السجاد المغمور بدمها.

في تلك اللحظة، ارتجف الأمير من هول الصدمة، وعيناه شاخصتان إلى مريم التي لفظت أنفاسها الأخيرة. انتفخت أوداجه من الغضب، واندفع بنية الهجوم، لكن الرجل المقنع أوقفه بإشارة تحذير:

"توقف، كما حذرتك من قبل. أي خطأ آخر منك، ستكون ابنتك التالية."

تجمد الأمير في مكانه، أنفاسه ثقيلة كأنه اختنق بها، وعظامه تصلبت بجمود اليأس والعجز. عمّت الخيمة صرخات زهرة وأمها، تغرقان في نحيب لا يهدأ، حزناً على مريم التي رحلت، وتركت خلفها فراغاً لا يمتلئ.

فـي لحظـة قصـيرة، اقـتحم رجـلان آخـران الخيمـة، يرتـدي أحدهما لباساً أبيض أنيقاً، وكلاهما مقنعان. قال أحدهما، الذي يرتدي الأسود، بنبرة ساخرة:

"يا للهول، ماذا فعلتم؟ لماذا قتلتم الفتاة المسكينة؟"

رد الأمير بغضب:

"ستندمون على ما فعلتموه، أيها الأوغاد!"

ابتسم الرجل بسخرية وقال:

"هل ستقتلنا؟ تفضل، حاول إن استطعت."

نظر الأمير إلى زوجته وابنته للحظة، ثم عاد يواجههم بنظرة تحدٍ. ضحك الرجل وأمر بقية رجاله، قائلاً:

"هيا، اقتلوه هو، ودعوا النساء وشأنهن."

لم يتردد الرجال؛ أحاطوا بالأمير الـذي وقـف مسـتعداً، وقـال بهدوء:

"ليتكم لم تفعلوها، يا حمقى."

اندفع أحد الرجال بسرعة ليطعنه، لكن الأمير تلافى الهجوم، وأمسك بمعصمه وأدار ذراعه بقوة حتى انكسرت، فصرخ الرجل ألماً، قبل أن يدفعه الأمير على اثنين من رفاقه.

فأسقطهم. هجم أحد الباقين، ضخم البنية، ووجه لكمة قوية إلى وجه الأمير، أسقطته أرضاً، لكنه نهض بسرعة، والتقط خصمه من الوسط بذراعيه، ثم هوا به بقوة، تلقت الأرض رأسه الرجل بصدمة قوية. أفقدته وعيه.

تراجع أحد الواقفين عند الباب وقال بسخرية:

"هل يعقل أن يطرحكم رجل واحد جميعاً؟"

نظر الثلاثة المتبقون إليه، فأشار لهم بالابتعاد وقال:

"أنتم بلا فائدة، سأفعلها بنفسي."

تجهم الأمير وقال بتحدٍ:

"يسرني ذلك، تعال إليّ لأذيقك بعضا من حليب الأب."

اندفع الرجل بسرعة نحو الأمير، لكن الأمير بقبضته القوية، عاجله بلكمة مباشرة إلى منتصف بطنه، أرجعته خطوات إلى الخلف، جعلته يترنح ويسعل بألمٍ شديد، محاولاً التقاط أنفاسه.

ابتسم الأمير بشجاعة واندفع نحو خصمه مجدداً، مصمماً على إنهاء القتال. لمح الرجل هجوم الأمير الحازم، فانخفض سريعاً إلى مستوى منخفض، متفادياً قبضتيه، ثم استغل الفرصة ليرد عليه بصدمة قوية دفعته خطوة للخلف.

وقبل أن يستعيد الأمير توازنه، شعر بوخز بارد اخترق قلبه، فرأى خنجراً مغروزاً عميقاً في صدره.

تسمرّت زهرة وفاطمة في مكانهما، شهوداً على سقوط الأمير، وأحسّتا برعشة تسري في أطرافهما، وعيناهما تفيض بالدموع. رأتا والدهم يسقط على ركبتيه، والسعال يشتد، فيما الدم الدافئ يسيل من فمه، وقد بدا عليه الإنهاك، والعالم يدور من حوله.

تقدّم الرجل المقنّع بخطوات منتصرة نحو الأمير الذي رفع يده المرتجفة، وهمس بآخر قواه:

"من... من تكون؟"

انحنى الرجل بهدوء، وسحب الخنجر من صدر الأمير ببطء، قبل أن ينزع قناعه. وبينما الأمير ينظر في ذهول، وجد وجه شيخنه، ابن الشيخ أحمد، يبتسم بخبث عميق.

صدمة غير متوقعة ملأت عينيه، ومع اختفاء بريق الحياة منه، هوى جسده نحو الأرض، وهو يلفظ أنفاسه الأخيرة.

اقتربت فاطمة وزهرة من جسد الأمير الميت، وعيناهما مغرورقتان بالدموع. انحنت فاطمة على صدره، تلمس وجهه بيدين مرتجفتين، وهمست بصوت متحشرج:

"يا ملاعين لماذا قتلموه؟".

زهرة، بجانبها، لم تتمالك دموعها وهي تلمس يده الباردة، وهمست بألم:

"أبي... أرجوك لا. لا ترحل؟"

ضمتها أمها إلى صدرها، وصوتهما المخنوق بالبكاء يرتجف في سكون الموت الثقيل.

اقترب شيخنه منهما بخطوات واثقة، وقال بنبرة متهكمة:

"هذا العجوز كاد أن يدمرنا جميعاً، كل ذلك لرفضه مولاي من أجلكِ، أيتها المدللة."

ثم دفع رأس زهرة بسبابته، فأوقفته فاطمة غاضبة وهي تصرخ:

"ابنتي لن تتزوج ذلك المعتوه الذي قتل زوجي!"

ابتسم شيخنه بسخرية، وقال:

"كان سيقتلكم جميعاً ويدمر نصف القبيلة بسبب عنادكم الأحمق."

تساءلت زهرة، بصوت مرتجف يغلبه البكاء:

"ماذا تقصد؟"

رد شيخنه بتصنّعٍ بارد:

"كان مولاي على وشك إعلان الحرب على القبيلة، لكنني أقنعته بالعدول مقابل أن أعده بيدكِ، يا زهرة."

نظرت إليه زهرة بعينين مرهقتين وهمست:

"لكنني لا أريده."

احتدّ صوته وقال بلهجة تهديدية:

"ليس الأمر بيدكِ، فأشقاؤكِ بين يدي."

فزعٌ خنق زهرة ووالدتها، وهما تشاهدانه يبتسم بمكر ويقول:

"إما أن تتزوجي مولاي لتجنبي القبيلة الحرب، أو سأضمن أن يلحق صلاح وعبد الفتاح بوالدهما في الجحيم."

تبادلت زهرة وأمها نظراتٍ مذعورة، ثم انحنت زهرة، وكلماتها تختنق بالبكاء:

"سأفعل ما تريد... لكن أرجوك، دع إخوتي وشأنهم."

ابتسم شيخنه باستخفاف وقال:

"قرار حكيم. سأعفو عنهما، لكن لن تطأ أقدامهما أرض القبيلة مرة أخرى."

ثم صمت للحظة قبل أن يتابع بنبرة آمرة:

"ما حدث هنا لا علاقة لي به. إذا سألكم أحد، فقولا إن رجالاً مقنعين هجموا على الأمير وقتلوه."

غرقت زهرة وأمها في البكاء، تهزّان رأسيهما برضوخ وذلّ، وعندها أشار شيخنه إلى أحد رجاله ليأخذهما إلى الخيمة المجاورة.

اقترب الرجل ذو اللباس الأبيض بخطى ثابتة، ثم أنزل قناعه لينكشف وجه العربي، عاقداً حاجبيه بنظرة صارمة مليئة بالمرارة والغضب. ولم ينبس ببنت شفة.

أما شيخنه، فقد قابل نظراته بابتسامة خبيثة ونظرة تشي بتحدٍ هادئ، وكأن ما يحدث لا يزيده سوى شعوراً بالانتصار.

العربي بصوت منخفض لكنه مشحون بالغضب المكبوت:

"شيخنه، كنت أظنك أخاً لي، ولكن الخنجر الذي غُرز في ظهري أتى منك أنت."

شيخنه مبتسماً بخبث ومتظاهراً بالجهل:

"ما الذي تتحدث عنه، يا عربي؟ أنت تهذي، كعادتك."

العربي يقترب منه بخطى بطيئة، وكلماته تخرج كصدى من جرح عميق:

"هدى... زوجتي. شرفي الذي دمرته بيديك القذرتين. لم تكتفِ بالمؤامرات والدسائس، بل تجاوزت لتغزو بيتي."

شيخنه بابتسامة تملؤها السخرية ونظرة تحدٍ:

"كان عليك أن تكون رجلاً يحافظ على ما يملكه. أما هدى، فلم تمانع أبداً..."

العربي يقبض على تلابيب شيخنه، وصوته يمزج بين الألم والغضب:

"أيها الجبان! هل تظن أنني سأتركك تخرج سالماً بعدما دنّست بيتي وكرامتي؟ الأمر لم يكن طمعاً بامرأة، بل كان طعنةً مباشرة لكرامتي."

شيخنه يحاول الإفلات من قبضته، متظاهراً بالثقة:

"كرامتك؟ أنت لم تكن سوى أداة، مجرّد وسيلة لأصل بها إلى هدفي. ظننت أنك منتبه وتدرك قواعد اللعبة."

العربي يهمس بغضب وهو يشد على ذراع شيخنه:

"اليوم، يا شيخنه، سينتهي كل شيء تعبت في تدبيره."

شيخنه بنبرة تهديد وهو يتراجع خطوة إلى الخلف:

"احذر، يا عربي، فأنت تلعب بالنار الآن."

العربي ملتفتاً إلى الرجال الواقفين، بنبرة تحدٍ صارمة:

"هؤلاء الرجال ليسوا أكباش فداء ليحترقوا بنارك يا شيخنه. بل أنت من سيكتوي بها الآن."

شيخنه تبسم بمكر، ولم ينبس ببنت شفة، ثم بسرعة خاطفة دفع العربي بعيداً وانطلق هارباً من الخيمة. دون تردد، تبعه رجال العربي، يهرولون خلفه في عزم.

لكن، وما إن خرجوا من الخيمة حتى دوى صوت إطلاق نار مفاجئ، وتوالت الرصاصات تخترق أجسادهم، لينهاروا على الأرض قتلى، واحداً تلو الآخر.

العربي خرج مسرعاً، وقلبه ينبض بقلق ليرى ما يحدث، ليُفاجأ بمشهد رفاقه جثثاً هامدة، وشيخنه يقف هناك منتصباً، ويبتسم بثقة.

أصابته الصدمة ولم يطل وقوفه حتى خرج من الأزقة المحيطة بالمخيم رجال آخرون، كانوا مختبئين بعناية، يحملون البنادق بقبضات ثابتة، وتحيط نظراتهم الحادة به.

بسرعة، أحاط الرجال بالعربي وأحكموا عليه الخناق، مصوبين أسلحتهم نحوه. رفع شيخنه يده بإشارة، وقال بصوت بارد:

"أطلقوا على ساقيه."

لم يترددوا لحظة؛ أطلقوا وابلاً من الرصاص على ساقي العربي، لتتكسر عظامه تحت وطأة النيران. سقط العربي على الأرض، يتلوى ويتقلب، يصرخ من شدة الألم، وقد تحول الغضب داخله إلى عذاب لا يوصف.

اقترب شيخنه من العربي الجريح، وألقى أمره بصوت بارد كالخنجر:

"هناك رجل خامس في إحدى الخيام... أسرعوا بإحضاره قبل وصول رجال الأمير."

ثم جلس بهدوء بالقرب من العربي، الذي كان يتلوى من الألم، وقد شابت ملابسه البيضاء بالدم، كأنها لوحة ترسم نهايته. تأمل شيخنه حاله بسخرية وقال:

"يا لك من مسكين، يا عربي. ظننت طوال الوقت أنني حليفك، بينما كنت فقط دمية بين يديّ... هل حقاً اعتقدت أنني خنتك لرغبة عابرة في زوجتك؟ كان الأمر كله مخططاً لجرك إلى القفص. الآن، كل التهم ستُرمى عليك، مقتل الأمير، ومحاولة التمرد. وما أبشعها من نهاية، ميتٌ لا يستطيع الدفاع عن شرفه."

العربي، رغم ألمه، تملكه غضبٌ جارف، فصاح بصوت مختنق من القهر:

"أيها الوغد الحقير. لقد كذبت عندما قلت لم أجد ضحيتي!"

قهقه شيخنه ضاحكاً، وكأنما يستمتع بنصره، ثم قال بابتسامة متعالية:

"الحمقى وحدهم يموتون في مؤامرات غيرهم، وأنت، يا صديقي، كنت أحمقهم على الإطلاق."

تقلصت ملامح العربي من الألم والحسرة، بينما شيخنه واصل بلهجة تفيض بالاستفزاز:

"هل تعرف ما يضحكني أكثر؟ إنها زوجتك المسكينة... غداً ستقف بين يدي سادة القبيلة والإمارة، شاهدةً على جرمك من أجلي. يا لها من مسكينة، كل ما يهمها هو رجل يطفئ نهمها."

صاح العربي، وقد امتزجت في صرخته شتائمه ودموعه التي انهمرت كأنهار الحزن المكبوت:

"اللعنة عليك، يا شيخنه! سيأتي يوم تحاسب فيه على أفعالك الدنيئة!"

تراجع شيخنه خطوة إلى الوراء، مبتسماً ابتسامة باردة، ثم التقط ببندقية من يد أحد رجاله، وقال بلهجة مشوبة بالشفقة:

"أشفق عليك حقاً، يا عربي..."

ثم، بلا تردد، صوب البندقية نحو رأس العربي، الذي نظر إليه بتوسل وأطلق طلقة حاسمة اخترقت عينه، واستلت معها روحه.

وقف شيخنه يتنفس ريح البارود المحترق، مستمتعاً بالهدوء الذي أعقب ضجيج المعركة. لم يدم صمته طويلاً، إذ عاد

رجاله وقد ارتسمت على وجوههم ملامح الخيبة، ليعلنوا أنهم لم يعثروا على الرجل الخامس وأنه قد فرّ.

شيخنه تملكه الغضب، فتقدم نحو أحدهم وركله في بطنه بقوة، فسقط الرجل متألماً يتلوى على الأرض. اقترب شيخنه من جثث رجال العربي وأخذ يتفحصها، قبل أن يتمتم في نفسه بمرارة:

"لحبيب... ذلك النذل! لقد استهنت به."

نظر إلى رجاله الباقين وأمرهم بصرامة قائلاً:

"أوجدوه بأي ثمن، ولا تتركوا زاوية في المخيم إلا وتقلبونها بحثا عنه."

تفرق الرجال بين الأزقة، بينما بقي بعضهم على أهبة الاستعداد، يترقبون وصول الحشود التي تقاطرت بعد سماع دوي إطلاق النار.

شيخنه ابتسم بخبث وهو يدرك ما عليه فعله الآن؛ لقد حانت لحظة تنفيذ أكبر خدعة في تاريخ القبيلة، والتي ستوصله إلى مقاليد السلطة المطلقة.

استلّ خنجره ببطء، وطعن أسفل فخذه، متمتماً لنفسه بابتسامة خبيثة:

"حان وقت العرض الكبير..."

*****

ميناء العرائش

بعد عام كامل. هناك في مدينة فاس. علت في أرجاء القصر أصوات خطوات الأرملة العجوز وهي تتقدم نحو باب قصرها العتيق. ثوبها الأسود الطويل، المُزين بخيوط فضية متشابكة، يكاد يلامس الأرض، بينما ترفع رأسها ويديها مشتبكتان خلفها.

تتبعها ابنتها بخطوات أكثر نعومة، ترتدي عباءة فاخرة مطرزة بخيوط ذهبية، وتحمل صندوقا فضيا بين يديها.

وقف الخادم ذو السن الخمسيني، ينتظر بجوار العربة المزخرفة التي تجرها أربعة جياد سوداء قوية. انتصب منتظراً كتمثال، لكنه ما إن رأى الأرملة حتى انحنى باحترام عميق وقال:

"كل شيء جاهز، سيدتي. الأمتعة محملة، والخيول مستعدة."

رفعت العجوز جفونها المتجعدة بنظرة حادة، ثم قالت بصوت واضح ونبرات واثقة:

"أحسنت، يا عابد. أكره التأخير، وأكره الأخطاء أكثر. تأكد من أن الطريق سالك، لا نريد أي مفاجآت غير متوقعة."

رد الخادم مطمئناً:

"أعدك بذلك، سيدتي."

التفتت الأرملة إلى ابنتها وقالت بنبرة أخف قليلاً لا تخلو من الحزم:

"جهزي نفسك جيداً، يا غلانة. الرحلة إلى العرائش طويلة، وسيكون الطريق مُتعباً. ولكن الأمر يستحق من أجل صفقة كهذه."

ابتسمت غلانة، وقالت بثقة:

"لا تقلقي، أماه. كل شيء تحت السيطرة. وسأحرص على أن تسير الأمور كما خططتِ لها، هذه ليست أول مرة أتولى عملك."

ركبت الأرملة العربة بخطوة ثابتة، وأشارت لغلانة بالدخول قبل أن تغلق باب العربة. ثم قالت:

"مراكبنا في الميناء بحاجة إلى توسعة، وهذه السفينة الجديدة ستكون مفتاحاً لنيل زبائن أكثر. لا مجال للفشل، أتفهمين؟"

هزت غلانة رأسها موافقة، وقالت بحماس:

"بالطبع، أماه. فقط ثقي بقدرتي على الإقناع."

تحركت العربة ببطء في البداية، لتخرج من بوابة القصر الكبيرة، حيث وقف الحراس مصطفين على الجانبين. ثم تسارعت الخيول في خطواتها، لتشق طريقها نحو الشمال الغربي، متجهة إلى مدينة العرائش الساحلية.

***

أمام باب قاعة الاستقبال في بيت التاجر المضيف بمدينة العرائش. أخذت غلانة نفساً عميقاً، صدرها يرتفع وينخفض ببطء وهي تحاول تهدئة توترها. بجانبها، كانت والدتها تراقبها بنظرة حادة. لاحظت الأرملة ارتباك ابنتها، فقالت بصوت منخفض لكنه واثق:

"لقد بنيت ثروتنا بصفقات لا يتعدى عددها العشرة، ولكنني في المقابل خسرت قرابة المئة. هذا العالم لا يخلو من الفشل."

التفتت غلانة إلى أمها، نظرتها تحمل القليل من التحدي والكثير من التصميم، ثم ابتسمت ابتسامة خفيفة:

"أعلم يا أمي، لكن بغض النظر عن الواقع، أريد أن أربح هذه المرة."

اقتربت الأرملة من الباب، دفعته بيدها بهدوء وقالت بنبرة جامدة تخفي خلفها تحذيراً:

"لم أرى قط رجلاً يتفوق على ذكاء امرأة تعرف ما تريد. تذكري هذا."

دخلت الاثنتان القاعة بخطوات ثابتة. الأرملة خلف ابنتها، كالظل كأنها تعلن "أنا معها مهما كان." أما غلانة، فقد سارت وكأنها تمتلك القاعة بأكملها. عباءتها السوداء المطرزة بخيوط ذهبية، تلتف حول جسدها برشاقة، وعيناها تتجولان بهدوء على وجوه الحاضرين.

كل الأنظار في القاعة انتصبت حولها، الرجال يختلسون النظر بشيء من الحذر والافتتان. جمالها لم يكن عادياً، بل

يحمل مزيجاً من القوة والجاذبية. قامتُها الممشوقة ونظرتها الساحرة وابتسامتها الخافتة جعلت الجو مشحوناً.

جلست الأرملة في زاوية مريحة، تنظر إلى الحاضرين بنظرة تقييمية. أما غلانة، فقد بقيت واقفة، يديها متشابكتان أمامها، تنتظر بصمت أن يُفسح لها المجال للكلام.

تقدم صاحب المكان، رجل ممتلئ قليلاً بملامح حازمة، إلا أن عينيه خانتاه وهو يطالع غلانة بإعجاب واضح. تحشرج صوته قليلاً قبل أن يقول:

"أيها السادة، أرحب بكم في منزلي، وأخص بالذكر السيدة غلانة ووالدتها المحترمة."

أومأت غلانة برأسها بخفة، ثم قالت بنبرة واثقة تسللت عبر الصمت كالسهم:

"أشكرك، سيد قطب، كما أشكر الجميع على حضورهم بناءً على دعوتنا."

تحرك أحد الحاضرين، رجل طويل القامة بشارب عريض، ووقف قائلاً بنبرة فيها محاولة للتودد:

"الشرف لنا، سيدتي، نحن سعداء بوجودك بيننا."

ابتسمت غلانة، تلك الابتسامة التي تحمل في طياتها مزيجاً من الرضا والتحدي. ألقت نظرة قصيرة نحو والدتها، التي لم تتغير ملامحها. تراقب المجلس دون تحيز.

عاد قطب ليتدخل، محاولاً كسر التوتر:

"سيدتي غلانة، أعتقد أن الرجال متشوقون لسماع عرضك."

نظرت غلانة إليه، ثم جالت بنظرها بين الحاضرين، وكأنها تقرأ كل واحد منهم بعينيها قبل أن تتحدث. طال صمتها لوهلة، مما زاد من توتر الرجال، ثم قالت بابتسامة هادئة:

"الوقت معنا؟ دعونا نأخذ الأمور بروية ولنعرف أولاً من لديه الجرأة للمشاركة قبل أن ألقي بعرضي."

في زاويتها، ارتسمت ابتسامة خافتة على وجه والدتها، كأنها تعترف ببراعة ابنتها.

صفقت غلانة بخفة، فصدر صوت التصفيق ممزوجاً بطنين أساور الذهب في معصمها، مما جعل البعض ينظرون إلى معصمها للحظة، وكأنهم يبحثون عن الإجابة في تفاصيلها. ثم أكملت بصوت منخفض لكنه نافذ:

"ليس كل من يبحر يصل إلى وجهته، لكننا يا سادة، هنا لنختبر من لديه شجاعة القبطان."

***

بخطوات متزنة، خرج مسعود من الباب إلى الشرفة المطلة على البحر، حاملاً بيديه صحناً صغيراً يحمل كوبين زجاجيين من الشاي. كان البحر أمامه يبدو كمرآة مشتعلة، تعكس وهج شمس الظهيرة فوق أمواجه المتراقصة.

توقف للحظة، ينظر إلى صديقه إدريس الجالس تحت المظلة، ظهره منحنٍ قليلاً وكأنه يطارد في الأفق ذكرياتٍ قديمة. تقدّم بخطوات هادئة نحو الطاولة الصغيرة، وضع الصحن برفق ثم جلس على الكرسي المجاور.

قال مبتسماً، وهو يراقب إدريس المتأمل في البحر:

"أخبرني، يا إدريس... هل اشتقت لجمال بحر العرائش خلال غيبتك الطويلة؟"

رفع إدريس رأسه قليلاً، التقط أحد الكوبين بيدٍ بدت عليها آثار الطريق الطويل، ثم قال بعد رشفة دافئة:

"أكثر مما تتصور يا مسعود. مهما جبتُ البلدان، يظل لهذا البحر مكانته. هواؤه، صوته، ورائحته... كأنها تحتضنني بعد كل غياب."

ضحك مسعود، ثم مال بجسده إلى الأمام، يستند بمرفقيه على الطاولة:

"نعم، مدينة العرائش لا تشبه أي مكان. هدوؤها، وجمال طبيعتها، وسحر هذا البحر... إنها ملاذ أرواحنا."

تبسم إدريس موافقاً، ثم قال بعد لحظة صمت:

"كيف حالك أنت؟ بلغني أنك تنتظر مولوداً قريباً. مبارك لك يا أخي."

توردت ملامح مسعود بشيء من الفخر، وأجاب وهو يداعب الكأس بيده:

"دمت يا إدريس. أنا متلهف لتلك اللحظة أكثر مما تتصور. دعواتك أن يكون مولوداً مباركاً."

ابتسم إدريس بدوره، لكن عينيه عادتا لمطاردة الأفق، حيث التقت الأمواج بالسماء في خطٍ لا نهائي. كان مسعود يراقب صديقه بصمت للحظات، قبل أن يقول بنبرة فضول:

"والآن، أخبرني... كيف كانت رحلتك؟ سمعت أنك زرت قبائل الصحراء. لابد أن لديك الكثير لتحكيه."

عدّل إدريس جلسته وتنهد بهدوء، ثم قال وهو ينظر إلى صديقه:

"رحلة طويلة، مليئة بالمفاجآت."

رفع مسعود حاجبيه وقال بابتسامة متحفزة:

"سمعت أخباراً صادمة عن موت أحد أسياد القبائل، لكن الأخبار تلفها بعض الضبابية."

أخذ إدريس رشفة من الشاي، وعاد بنظره إلى البحر، كأنه يبحث عن كلماته بين أمواجه:

"نعم، كنت هناك منذ عدة أشهر، وشهدت أحداثاً كبيرة عصفت بقبيلة أولاد شداد."

مال مسعود بجسده السمين نحو رفيقه، وقال بنبرة فضولية:

"وماذا جرى بالضبط؟"

أجاب إدريس بصوت هادئ:

"كنت هناك قبل نصف عام للتجارة في مكان تجمع القبيلة. رأيت فرصة للربح بعدما علمت أنهم يحتفلون بعادتهم المعروفة بالعرس الكبير، وكان الاحتفال سيستمر شهراً كاملاً. وفعلاً، حققت أرباحاً كبيرة في تلك الأيام. لكن الأمور تغيرت فجأة، وتوقفت الاحتفالات تماماً بعد اغتيال عثمان، أمير منطقة آدرار بأسرها وسيد قبيلة أولاد شداد."

رفع مسعود حاجبيه بدهشة وقال:

"اغتيال؟ لماذا؟ ما الغاية من قتله؟"

قال إدريس دون تردد:

"لقد كان أحد أبناء شيوخ القبيلة، أعتقد أن اسمه العربي. اغتال الأمير سعياً لنيل السلطة بالقوة، لكنه قُتل على الفور على يد رجل آخر يدعى شيخنه. الذي بدى أنه كان على دراية بتلك المكيدة، لكنه تأخر عن إنقاذ الأمير. مع ذلك أنقذ القبيلة بعدما قاد رجالها لإحباط هجوم فيلق من المرتزقة كان يحتشد على حدود المخيم لدعم العربي على فرض سلطته. لكن شيخنه ورجاله باغتوهم وسفكوا دماء الكثير وفر من بقي منهم."

تعجب مسعود وقال:

"إن شيخنه بطل حقيقي. أنقذ القبيلة من صراع وشيك."

تبسم إدريس وأومأ برأسه:

"أوافقك الرأي. فعله كان شجاعاً، لكن سلسلة من الأحداث اشتعلت بعد ذلك، خاصة بعدما بدأت القبائل الأخرى تطالب بتنصيب أمير جديد للإمارة."

سأل مسعود بفضول:

"ولماذا لم ينصبوا أحد أبناء الأمير أميراً جديداً؟"

مسح إدريس على فص خاتمه الأحمر بتفكير، وقال:

"يا أخي، الأمور أعقد بكثير مما قد تتصور. أبناء الأمير اختفوا، ولم يعرف عنهم أحد شيئاً بعد غيابهم الطويل. ثم انتشرت شائعات بين القبائل أنهم قد قُتلوا على يد العربي أيضاً."

بدت الحيرة على وجه مسعود وقال:

"وماذا حدث بعد ذلك؟ الأمور تبدو أكثر تعقيداً."

أخذ إدريس رشفة من كأسه الباردة، ثم قال:

"نعم، القبائل الأخرى بدأت تطالب باختيار أمير منهم، لكن شيوخ قبيلة شداد رفضوا هذا الطلب. بعدها، اجتمع مجلس كبير من شيوخ القبائل وشيوخ أولاد شداد ليختاروا أميراً جديداً. تم الاتفاق على رجل إسمه غريب، يدعى الشيباني أو شيء من هذا القبيل... لكنه كان غائباً، وانتظرناه شهوراً دون أن يعود. ومع مرور الوقت، زادت الاضطرابات."

قال مسعود بتسرع:

"هل بدأوا في الحرب إذن؟"

ضحك إدريس قائلاً:

"لا، لم يحدث ذلك. ما حدث هو أن الناس بدأوا يتحدثون عن استحقاق شيخنه للمنصب، خاصة أنه كان من أنقذ القبيلة وأحبط مخططات العربي. رفض أغلب الشيوخ هذا الأمر في البداية، لكن مع الوقت، بدأوا يرضخون لرأي العامة."

"أنا أوافقهم الرأي، شيخنه رجل مخلص لقبيلته."

قالها مسعود بحماس وهو يقبض قبضته الغليظة. ثم رفع نظره نحو إدريس قائلاً:

"أخبرني، هل نصبوه أميراً؟"

تنهد إدريس، وتردد للحظة قبل أن يجيب:

"الحقيقة... لا أدري إذا كانوا قد نصبوه فعلاً. أنا تركت مخيم قبيلة أولاد شداد سريعاً خوفاً من أن تضيع ثروتي بسبب أي نزاع وشيك."

أجاب مسعود بتأييد:

"كنت لأفعل نفس الشيء، تصرفك حكيم."

أضاف إدريس وهو يفكر قليلاً:

"سمعت بعض الشائعات في وادان، يقولون إنه تم تنصيبه مؤقتاً حتى يعود الشيباني. لكن... من وجهة نظري هذا أمر سخيف. والأمر الراجح أنه أصبح أميراً بشكل دائم، رغم أن هذا يبقى مجرد كلام."

مسح مسعود لحيته ببطء، يتأمل كلمات إدريس وهو يستوعب ما قاله. ثم نهض إدريس وتحرك نحو حافة الشرفة، حيث لامست الشمس تجاعيد وجهه العتيق. وقال بهدوء:

"لقد صادفت أحدهم في مدينة وادان."

رفع مسعود نظره بتساؤل، وقال:

"من؟"

أجاب إدريس، وهو يبتسم بخفة:

"مولاي، تاجر فاس الكبير."

"تاجر فاس الكبير؟ هل قابلته حقاً؟"

قال مسعود بتسرع.

رد إدريس، وهو ينحني مستنداً على حافة الشرفة:

"لم أقابله رسمياً. لكنه كان هناك أثناء إقامتي في وادان."

قال مسعود وهو يغمض عينيه قليلاً:

"ما تقوله معقول. هو ينتسب لإحدى تلك القبائل، وجوده هناك ليس مصادفة."

ثم سكت لحظة وأتبع.

"ماذا بشأنه؟ هل كان يتاجر هناك؟"

"لا، سبب وجوده هناك أغرب من ذلك. لقد كان يبحث عن زوجة، أو شيء من هذا القبيل."

قال إدريس وهو يبتسم ابتسامة خفيفة، كأنما يخبئ شيئاً مثيراً في حديثه.

تعجب مسعود، ثم نهض ببطء واتجه نحو الحافة، حتى لامسها ببطنه الكبير. نظر إلى البحر بعينيه اللامعتين، وكأنما يحاول استيعاب ما قاله إدريس.

خيم الصمت قليلاً بينهما، قبل أن يكسره صوت إدريس، الذي كان يحمل لمحة من الفضول:

"ماذا عنك يا صديقي؟ أليس هناك ما تخبرني به؟"

تبسم مسعود وقال وهو يمد يده ليضغط على لحيته:

"لا أعتقد أن هناك خبراً مميزاً لأخبرك به. ولكن في الأمس كان هناك اجتماع للتجار مع أرملة فاس، بشأن استثماراتهم في مركب شحن جديد."

تنهد إدريس ببطء وهو ينقل نظره بعيداً نحو البحر:

"الأرملة تريد مستثمرين... لا أعتقد أن الأمر يهمني. فأنا تاجر صحراء، وتجارتي يشق عليها ركوب البحر."

ضحك مسعود، وابتسم بينما تحرك ببطء نحو حافة الشرفة ثم ابتسم وهو ينظر للزقاق بالأسفل:

"يا لها من مصادفة."

أدار إدريس رأسه نحو صديقه وفي نظرته تساؤل.

مسعود وهو مبتسم قال:

"إنه خادم الأرملة، لقد مر من هنا لتوه."

***

في ميناء العرائش، كانت الفوضى سيّدة المكان. ضجة عظيمة تملأ الأجواء، تمتزج فيها أصوات الصيادين المنهمكين في تفريغ شباكهم، وصيحات الحمالين وهم يتنقلون بأثقالهم بين الأرصفة.

رائحة السمك المنتنة تمتزج مع نسمات البحر المالحة، لتخلق خليطاً يخنق الأنفاس، بينما تنتشر بقع المياه القذرة والزيوت على الأرضيات المهترئة. الأوساخ متناثرة في كل زاوية، بقايا الشباك، وأصداف مهشمة، وعلب صدئة تُكمل مشهد القرف الذي يحيط بكل شيء.

على الأرصفة، كانت المراكب الصغيرة متكدسة كأنها تتصارع على المكان، مراكب الصيد القديمة بجوانبها المتآكلة تتجاور مع مراكب الشحن الثقيلة التي ترتفع عليها الصناديق والبضائع المتنوعة.

خشب الأرصفة يئن تحت أقدام الرجال في أطيط مقلق، بينما تملأ أجواء الميناء أصوات الأمواج المتلاطمة على الصخور ونعيق النوارس التي تحلق بجشع فوق المشهد، تبحث عن بقايا السمك.

وفي قلب كل هذا الصخب، يعبر الناس في ازدحام مستمر، تجار يساومون، بحارة يشتمون، ونساء يبعن الأسماك بصوت مرتفع، في حين تسير العربات التي تجرها البغال ببطء وسط الحشد، تتخطى الحفر والمياه القذرة بصعوبة.

في زيه الفاخر، كان عابد، خادم الأرملة المخلص، يشق طريقه بين المارة على أرصفة الميناء. يسد أنفه بمنديله الحريري بقوة، وجهه يعكس مزيجاً من التقزز والغضب، وعيناه تحدقان بالباعة الذين يلوحون بأسماكهم المبتلة في وجوه الجميع. تذمر بين أسنانه بصوت مسموع:

"ما هذا القرف؟! لو كان بيدي لألقيت بكم جميعا في البحر مع أسماككم النتنة."

كل خطوة كانت تزيد من انزعاجه، حتى بدا وكأن الرائحة تتسلل عبر المنديل لتخنقه. حاول تجنب أكوام الفضلات التي تكدست هنا وهناك، متمايلاً بخفة لتفادي بقع الماء العفن.

عندما وصل أخيراً إلى مرفأ مراكب الأرملة، تنفس الصعداء، وإن لم يكن بشكل كامل. كان المكان أهدأ،

والرائحة أقل سوءاً، لكن لم يخفِ انزعاجه. غمغم وهو ينفض غبار ثيابه بتأفف:

"أين ذلك اللعين عديم الفائدة؟"

الأعرج، الذي كان منهمكاً في محادثة مع أحد الحمالين، انتفض مذعوراً عند رؤية عابد يقترب. أمسك بعمامته المتهالكة وحاول أن يبدو مطيعاً وهو يقول:

"آه، سيدي عابد! عذراً على التأخير، كنت منشغلاً ببعض الأمور."

عابد لم يضيع الوقت، بل تحدث بنبرة تحمل مزيجاً من الصبر النافد والاحتقار:

"أيها الأعرج الأحمق، ألم يردك ما كتبته لك؟ أم أن رسالتي ضاعت بين أكوام القاذورات التي تحيط بك؟"

ضحك الأعرج بتوتر، فبرزت أسنانه السوداء المتآكلة، ورد بنبرة حاول أن يجعلها مهادنة:

"العفو يا سيدي، لقد حصل تأخير في رحلة المركب الذي سينقل البصل. حدثت بعض المشاكل..."

لم ينتظره عابد ليكمل، بل صرخ بصوت عالٍ، غاضباً كعاصفة بحرية:

"بصل؟! وهل أصبح نقل البصل مشكلة الآن؟! لا فائدة منك، يا عديم النفع! إن كان تنظيم رحلة يشق عليك لهذه الدرجة، فلعلني أكسر رجلك الأخرى وأرميك في أحد هذه البراميل. ربما ستتعلم أن تتحرك أسرع حينها!"

الأعرج، محاولاً الحفاظ على رباطة جأشه رغم التصاعد الواضح في غضب عابد، قال بنبرة مهدئة ومصطنعة:

"سيدي، أنت على حق تماماً. هذا العمل يبدو أكثر مما أستطيع أن أديره بمفردي. لكن أرجوك، تفضل بالجلوس، وسيكون كل شيء جاهزاً قبيْل حضور السيدة."

لكن هذه الكلمات لم تكن كافية لإخماد نار الغضب في عابد. زفر بضيق، ثم أمسك بياقة الأعرج بشدة، وهزّه بعنف وهو يقول بصوت مزلزل:

"أيها الحقير! المشكلة ليست السيدة فقط، بل سمعتنا! أنت تشوه سمعة عمل السيدة. لو رأت هذه الفوضى هنا، ستسرحك أنت وطاقمك المقرف فوراً، ولن تشفع لك أي أعذار!"

الأعرج ابتسم ابتسامة متكلفة، محاولة منه لامتصاص غضب عابد، وقال بنبرة مهادنة:

"سيدي، أرجوك، امنحني فرصة واحدة فقط. أعدك أن كل شيء سيكون على ما يرام قبْل وصولها."

عابد، وقد بدا وكأن صبره قد نفد تماماً، رماه بقوة حتى ترنح الأعرج وكاد يسقط. ثم تقدم بخطوات واسعة نحو مكتب الأعرج، وصاح بصوت عالٍ، يملأه الأمر والحزم:

"فلتسرع الآن! أريد هذا المكان نظيفاً كالكريستال! وأبعد باعة السمك المقرفين من هنا فوراً، لا أريد أن أرى أي أثر لهذه القذارة!"

الأعرج، وقد اشتدت عليه ملامح التوتر، التفت نحو أحد الحمالين القريبين، وصفع يده على الطاولة وهو يصرخ:

"هيا أيها الكسالى! نظفوا المكان الآن، تحركوا قبل أن يجعلني هذا الرجل أزحف على ركبتَيّ! وأنت، خذ هؤلاء الباعة وطردهم من هنا! لا أريد أن أرى وجوههم مرة أخرى!"

عابد، وهو يراقب المشهد، أطلق زفيراً حاداً وعقد ذراعيه أمام صدره، نظراته المتحفزة لم تخفِ ازدراءه الواضح. تمتم بحدة كأنه يحدث نفسه:

"إنه لأمر غريب أن يخرج مال نظيف من كومة القذارة هذه!"

ثم التفت مجدداً نحو الأعرج، وقال بلهجة صارمة:

"وأذكرك، أيها الأحمق، هذه فرصتك الأخيرة. إن لم يكن كل شيء مثالياً قبل وصولها، فالأفضل لك أن تختبئ تحت البحر مع أسماكك النتنة."

الأعرج انحنى قليلاً، وهو يردد بخنوع:

"كما تأمر، سيدي، كل شيء سيكون كما تريد."

عابد، وقد بدا وكأنه يحاول جاهداً كبح آخر خيوط صبره، أدار وجهه بعيداً عن الأعرج، وسار بخطوات متثاقلة نحو طرف المرفأ، متأملاً الأفق. بينما انشغل الأعرج بتوزيع الشاي على الحدادين والنجارين الذين تجمعوا حوله في جو أشبه بحفلة صغيرة. ضحكات الأعرج المرتفعة كانت كافية لإثارة استياء عابد، لكنّه قرر تجاهله مؤقتاً.

وما هي إلا لحظات حتى صدحت أصوات حوافر الخيول، تعلن عن وصول الثلاث عربات للتجار. تقدمتها عربة الأرملة، وقد زُينت بعناية تعكس الفخامة، وسرعان ما سارع عابد نحوها. فتح الباب برشاقة، وقبل أن ينطق بأي كلمة، ظهرت غلانة كأنها حلم خرج للتو من عباءة الواقع.

رتبت غلانة عباءتها الزرقاء بحركة رشيقة، ثم رفعت رأسها، فانعكس ضوء الشمس على وجهها المشرق وجسدها المتناسق. ارتفع همس العمال، الذين لم يستطيعوا كتم إعجابهم، بعضهم شرد بنظره، وآخرون تبادلوا نظرات متوترة، وكأنهم رأوا مخلوقاً سماوياً. أحد الحدادين، وقد نسي نفسه، همس لصديقه:

"لماذا الأغنياء بهذا القدر من الجمال دوماً؟"

بادر عابد قائلاً بنبرة رسمية وهو ينحني قليلاً:

"أهلاً وسهلاً بكِ سيدتي. المكان جاهز لاستقبالك."

ابتسمت غلانة برقة، كانت كافية لتذيب قلوب الناظرين. تقدمت بخطوات ثابتة نحو المرفأ، تاركة عباءتها تتمايل خلفها في تناغم. كل خطوة كانت كأنها إعلان لحضور لا يقاوم.

وعندما أعاد عابد نظره إلى داخل العربة، تفاجأ بعدم وجود الأرملة، فازدادت ملامحه قلقاً. سارع بخطواته خلف غلانة، قائلاً بنبرة لا تخلو من التوتر:

"أين السيدة؟ لما ليست معك؟"

أوقفت غلانة خطواتها للحظة، ونظرت إليه بثقة وهي ترد بابتسامة صغيرة:

"أمي لن تحضر اليوم. أنا سأشرف على العمل."

تنهد عابد ببطء، كأنه يحاول تقبل هذا الواقع الجديد، بينما كان العمال لا يزالون يرمقون غلانة بنظراتهم المتوهجة بالإعجاب.

تقدم الأعرج بتوتر واضح، وهو يحاول ترتيب ملابسه المتهالكة بيديه المرتعشتين. وقف أمام غلانة، وحاول أن يبدو واثقاً، لكن صوته خرج متحشرجاً:

"أهلاً وسهلاً بكِ سيدتي. شرفتنا بزيارتك. أنا... أنا لا أصدق عيناي... جمالك... أخاذ!"

ضحكت غلانة بخفة، بينما كانت نظراتها تلمع بفطنة. قالت، وكأنها تعطيه جرعة من الراحة:

"أنت خفيف الدم حقاً. لابد أنك رئيس المرفأ، زكريا الأعرج."

الأعرج، الذي بدا وكأنه حصل على لقب فارس في بلاط ملكي، هز رأسه بحماس ورد بابتسامة واسعة تكشف عن بقايا أسنانه المتعبة:

"بلحمه ودمه، سيدتي! تحت أمرك!"

عابد، بدا وكأنه يقاوم رغبة دفينة في إلقاء الأعرج في البحر، تنحنح بصوت مسموع ليعيد الانضباط للموقف، وقال بلهجة صارمة:

"زكريا، من فضلك، أفسح الطريق وأرشد السيدة إلى مكتبك فوراً."

لكن الأعرج، الذي بدا وكأنه استلذ الموقف، رد بخفة وهو يضع يده على قلبه بتمثيل مبالغ فيه:

"سيدي، أريد ذلك بكل شوق، لكن... ما عساي أفعل؟ عيناي قد استحوذت عليهما سيدتنا."

قهقهت غلانة بخفة وقالت مازحة وهي تنظر لعابد:

"إذن، أخشى أن أفقدك في البحر قريباً، يا زكريا."

غمغم عابد، بنبرة منخفضة:

"أقسم أنك ستندم على هذه الوقاحة... وسريعاً."

دلفت غلانة إلى مكتب الأعرج بخطوات هادئة، ورغم تواضع المكان بدا واضحاً أنها تسيطر على الجو بثقتها

وحضورها. المكتب كان صغيراً، يكاد يختنق من فوضى الأوراق المبعثرة على سطح الطاولة الخشبية القديمة التي غزتها الخدوش.

صناديق صغيرة مكدسة في الزوايا، بعضها مفتوح يكشف عن محتوياتها من أدوات بحرية وأختام عقود، وأخرى مغلقة بحبال بالية. رائحة الورق القديم والغبار الممتزج برائحة البحر الطاغية تغمر المكان.

الأعرج، وقد بدا عليه بعض الارتباك، سارع إلى إحضار كرسيه الخشبي المتهالك بغرض توفير مجلس للسيدة، وقال بلهجة متحمسة:

"تفضلي، سيدتي. أعلم أن المكتب قد لا يليق بحضورك، لكن نأمل أن نكون عند حسن ظنك."

جلست غلانة بهدوء على الكرسي، بينما وقف عابد خلفها كحارس أمين، ولم تفارقه تلك النظرة الحادة. أما التجار، فقد أخذوا مواقعهم حول الطاولة الضيقة، وحاول كبير النجارين، الذي بدت عليه آثار العمل الشاق من خلال يديه الخشنتين وملابسه الرثة، أن يجد مكاناً بين الصناديق.

بدأ الاجتماع بصوت غلانة الواضح:

"كما تعلمون، هدفنا اليوم هو التأكد من جاهزية خطة بناء المركب الجديد، مع مراعاة كل التفاصيل التي تعزز من كفاءته وجودته. أخبرني، يا كبير النجارين، هل لديك أي ملاحظات على التصميم الذي قدمناه؟"

رد الرجل بعد أن مسح يديه الخشنة على فخذه:

"التصميم ممتاز يا سيدتي، سيوفر السرعة والحجم المناسب لحمل حمولة مضاعفة، ولكن لدينا مشكلة في نوعية الخشب المتوفر حالياً. لو تمكنّا من جلب خشب من جودة أفضل، فسيكون المركب أكثر صلابة."

تدخل أحد التجار، وهو رجل نحيف بوجه مشرب بالحمرة، وقال بنبرة جدية:

"لكن تكلفة الخشب الأفضل ستكون عالية."

أجابت غلانة بثقة:

"نعم، إذا كانت الجودة ستنعكس على عمر المركب وكفاءته، فهذا استثمار طويل الأمد. عابد، تأكد من الترتيب مع الموردين لجلب أفضل أنواع الخشب."

الأعرج، الذي كان يحاول أن يبدو مفيداً، انحنى قليلاً نحو الطاولة وأشار إلى إحدى الخرائط المعلقة على الجدار خلفه، وقال بنبرة عملية:

"مع احترامي، سيدتي، إذا سمحتم لي بإضافة نقطة مهمة. بناء الرصيف الخاص بالمركب يجب أن يراعي تيارات المد والجزر هنا في هذا الجزء من المرفأ."

ثم أشار بإصبعه إلى بقعة محددة على الخريطة وقال:

"هذا الموقع بالذات قد يسبب مشاكل إذا لم تُراعَ حركة التيارات جيداً. أرى أنه من الأفضل إعادة النظر في البناء هناك بما يضمن سلامة المركب عند رسوه في أوقات المد العالي."

صمتت غلانة لثوانٍ وهي تتأمل كلامه، ثم أومأت برأسها وقالت بابتسامة تقدير:

"هذه ملاحظة ذكية يا زكريا. شكراً على تنبيهك. سأراجع الأمر مع المهندس ونأخذ هذا بعين الاعتبار."

تدخل كبير النجارين بتأييد:

"ما ذكره السيد زكريا صحيح، سيدتي. يمكن إجراء بعض التعديلات لضمان ثبات المركب واستقراره."

ابتسمت غلانة بثقة وهي تتابع:

"جيد جداً، هذا ما أريد أن أراه. تعاون بناء واقتراحات فعالة. دعونا نواصل العمل بهذا الروح، ولا نترك أي تفصيل دون معالجة."

تبادل الحاضرون النظرات، وواصلوا النقاش حول تفاصيل التصميم، تكاليف البناء، وجدول الانتهاء، وسط أجواء تتسم بالجدية والاحتراف. عابد، رغم صمته، لم يكن يغفل عن توجيه نظرات صارمة إلى الأعرج بين الحين والآخر، بينما كانت غلانة تدير الحوار ببراعة، تاركة انطباعاً قوياً في نفوس الجميع بأنها القائدة الحقيقية لهذا المشروع.

استمر الاجتماع حتى الظهر، وعند انتهاءه بدأ التجار يتفرقون تدريجياً، وفتحت أبواب المرفأ ليعود النشاط مجدداً. جلست غلانة برزانة تحت مظلة مكتب الأعرج، تطل على الميناء وتتابع سير العمل بنظرة هادئة وواثقة.

بجانبها وقف عابد، يحمل قصعة ممتلئة بالتوت الطازج، يقدّمها لها كعادته في الاهتمام بتفاصيل راحتها.

الأعرج، الذي بدا عليه الحماس المفرط، أخذ يصدر أوامره بصوت عالٍ هنا وهناك، بينما العمال يتسابقون لإظهار جدّهم وقوتهم، وكأنهم في سباق لإثبات أنفسهم أمام غلانة.

كـان أحـدهم يرفـع صـندوقاً ضـخماً، وآخـر يحـاول تحريـك مركب بيديه العاريتين بتباه، مما أثار موجـة مـن الابتسـامات على وجه غلانة.

قالت وهي تضحك بخفة:

"هذا الطاقم مميز بالفعل. السيد زكريا يعرف كيف يحفز رجاله."

لكن عابد، الذي بدا غير مقتنع، تنحنح ورد بنبرة تهكمية:

"معذرة، سيدتي، لكن ذلك الأصلع سيحول المرسى إلـى كومة من الخراب قبل أن يدرك أنه تجاوز حدوده."

قهقهت غلانة بخفة، وقالت بابتسامة مرحة:

"عابـد، عليك أن تفهـم أن طبيعـة عمـل الميناء تختلـف تمامـاً عـن الـبلاط. هنـا، لا نعتمـد علـى الرسـميات والقواعد، بل على العمل الشاق والتعامل المباشر. أغلب أرباحنا تأتي من العملاء البسطاء والفقراء، ولـيس مـن كبار التجار الذين قد تعتقد أنهم أكثر أهمية."

رفع عابد حاجبيه قليلاً، ثم رد بلهجـة متواضـعة بعـدما فهم مقصدها:

"أوافقك الرأي، سيدتي. لكن ما زلت أرى أن هناك من يستطيع إدارة هذا المكان بشكل أفضل من الأعرج. فهو يفتقر إلى النظام."

تناولت غلانة حبة توت من القصعة ووضعتها في فمها بهدوء، ثم قالت بنبرة واثقة:

"ربما أنت محق، يا عابد. زكريا ليس الأفضل في الإدارة، لكن أمي عينته لأنه يمتلك ميزة لا يستطيع الكثيرون منافسته فيها، فقدرته على امتصاص غضب الآخرين والتعامل معهم بحنكة. أمر لا غنى عنه لمن يساوم مئات الأشخاص يومياً في مكان فوضوي كهذا."

أومأ عابد برأسه وهو يعيد النظر في رأيه. ثم رفع عينه عازماً على استفسار سيدته عن خطتها المقبلة، لكنه فوجئ بصوت الأعرج المرتفع يشق الهدوء وهو يصيح بغضب.

التفت نحو مصدر الصوت، فرأى الأعرج يتجادل مع رجل غريب الهيئة. رفع عابد حاجباً في استغراب، ثم قال لغلانة:

"سيدتي، ما الأمر الآن؟ لماذا يبدو الأعرج كأنه على وشك الانفجار؟"

ردت غلانة بهدوء وهي تراقب المشهد:

"يبدو أن هناك مشكلة. اذهب وتفقد الأمر."

تقدم عابد بخطوات واثقة نحو الأعرج، الذي كان يلوح بذراعيه في الهواء وهو يصيح بغضب:

"أخبرتك مئة مرة، أنا لا أوافق! لست مستعداً للمخاطرة بطاقمي ومراكبي من أجل جنونك!"

كان الرجل الآخر طويلاً بلباس غريب ومظهر خشن، يرد بصوت عميق وعينين متحديتين:

"اخفض صوتك، أيها الأصلع! قلت لك سأدفع ضعف المبلغ المطلوب. ما الذي يزعجك؟"

رد الأعرج بحزم، مشيراً إليه بإصبع اتهام:

"ما يزعجني أنك تريدني أن أكون أحمقاً مثلك. لن أنقل وحشاً على متن مراكبي، ولا بمليون قطعة ذهبية!"

اقترب عابد بخطوة، رافعاً حاجباً في استنكار:

"وحش؟ عن أي وحش تتحدث، أيها الأصلع؟"

زفر الأعرج بغضب وأشار إلى الرجل:

"هؤلاء الصيادون الهمج يريدون نقل نمر على متن مراكبنا! هل سمعت بشيء أكثر جنوناً من هذا؟"

لـوّح الرجـل بأظـافره المتسـخة نحـو الأعـرج، وقـال بنبـرة ساخرة:

"أحمق! ما المشكلة؟ إنـه مجـرد حيـوان، وسـيكون فـي قفصه طوال الرحلة. لن يسبب أي مشاكل."

رفع عابد يده لإسكات الرجل، ثم نظـر إلـى الأعـرج بنظـرة حادة:

"وأنت، لماذا تثير كل هذا الصخب؟ القفص سيبقي النمر محبوساً، أيها الجاهل؟"

هز الأعرج رأسه بعنف وقال:

"عن أي قفص تتحدث؟ القفص قد يتحطم أو ينفتح، ماذا لـو هـاجم الطـاقم؟ هـل تريـد أن يصـل مركبنـا للجهـة الأخرى وطاقمنا نصف مأكولين؟!"

ضحك الصياد بتهكم وقال:

"هذا النمر أكثـر أمانـاً مـن بعـض البشـر الـذين تعاملـت معهم في حياتي، أيها الجبان!"

تدخل عابد بصرامة:

"كفى! سيدتي ستقرر في هذا الشأن. لن أسمح لهذا الجدال أن يعطل العمل أكثر من هذا."

ثم التفت إلى غلانة، مشيراً بإيماءة تطلب رأيها، فيما وقف الأعرج والصياد يرمقان بعضهما بغضب مكتوم.

غلانة وقفت بهدوء، تتحرك بخطوات واثقة، وعيون الجميع تتبعها بحذر، كأنها لؤلؤة بين أصداف. اقتربت ببطء شديد، يزرع التوتر في نفوسهم، ثم نظرت نحو عابد الذي قال بقلق:

"سيدتي، هذا الرجل يريد نقل نمر على متن مركبنا، لكن زكريا يرفض بحجة أن الأمر خطر وغير آمن."

ابتسمت غلانة بهدوء، كمن يملك زمام الأمور وقالت:

"السيد زكريا معه حق، فالمخاطرة ليست بالأمر الهين."

لكن الصياد، بنبرة استفزازية وهو ينظر مباشرة في عينيها، قال:

"اسمعي، أيتها الفاتنة، لا يوجد أي خطر. النمر سيظل في قفصه، أعدك بذلك."

استشاط عابد غضباً ورد عليه بصوت مليء بالحنق:

"الزم حدك، أيها المهرج! كيف تجرؤ على مخاطبة سيدتي بهذا الأسلوب؟"

رفعت غلانة يدها بإشارة هادئة تُلجم الجميع. ثم التفتت إلى الصياد بابتسامة ساحرة وقالت:

"أنت شجاع حقاً، أيها الصياد. لا شك أن الإمساك بنمر حي يتطلب مهارة وبأساً. ولكن، هلا تسمح لي برؤيته؟ ربما حينها أقرر إن كان بإمكاني السماح بنقله."

نظر الصياد إليها ملياً، ثم زفر بحنق وهو يحك ذقنه المغبر، قبل أن يستدير مغادراً للحظات. عاد بعدها ومعه مجموعة من الرجال يدفعون عربة كبيرة تحمل قفصاً حديدياً.

داخل القفص، ظهر النمر، مستلقيا بهدوء متوتر، ذيله الطويل يرقص في الهواء كأنه يتابع إيقاع الأمواج المتزن، وعيناه الصفراء تتوهج في ضوء الشمس. يحرك لسانه بين أنيابه الحادة، مما جعل القشعريرة تسري في أجساد الجميع.

تراجعت غلانة خطوة صغيرة لتتأمل المشهد. كان مزيجاً من الإعجاب والتوجس يعكسه بريق عينيها، بينما الأعرج متجمد في مكانه، صاح بصوت مرتجف:

"سيدتي! أرجوك، أخبريهم أن يبعدوا هذا الوحش قبل أن ينقض علينا ويفترسنا جميعاً!"

لكن غلانة التفتت إليه بإشارة صارمة تطالبه بالصمت، ثم قالت للصياد بصوت ناعم وواثق:

"لابد أنكم بذلتم جهداً كبيراً للقبض عليه. وبالتأكيد ستجنون ثروة كبيرة من بيعه، أليس كذلك؟"

ابتسم الصياد بتفاخر وأومأ برأسه قائلاً:

"بالتأكيد. إنه كنز حي، وسيجلب سعراً خيالياً."

اقتربت غلانة خطوة أخرى نحو القفص، عيناها مثبتتان على النمر كأنها تدرس كل تفصيل فيه، ثم التفتت نحو الصياد وقالت بثقة وحزم:

"إذن، ستدفع عشرة أضعاف ما عرضته على السيد زكريا، إن كنت تريد نقل هذا."

شحُب وجه الصياد فجأة، وكشر عن أسنانه المصفرة وهو يصيح:

"ماذا؟ عشرة أضعاف؟ هذا جنون! هل تحاولين خداعي؟"

ابتسمت غلانة، بثبات من يعرف أن الكفة تميل لصالحه، وردت بهدوء:

"لا، بل أمنحك فرصة ذهبية. وإذا لم يعجبك قراري، يمكنك المغادرة الآن. لكن أنصحك بالتفكير ملياً."

وقف الصياد في مكانه للحظات، أصابعه تحك ذقنه بقلق واضح، ثم، بعد برهة طويلة، قال بصوت متردد يشوبه الغضب:

"آه. أنا موافق..."

ردت غلانة بابتسامة مريحة وهي تنظر للنمر:

"هذا الكائن يستحق كل قرش ستدفعه."

غلانة كانت على وشك أن تدير ظهرها، مكتفية بالصفقة التي حسمتها للتو، حين جاءها صوت غريب، عميق ومشحون بالغضب، صادر من جهة النمر:

"أيتها الغبية، لماذا وافقتِ على التعامل مع هؤلاء اللصوص؟"

تجمدت في مكانها، وملامحها تحولت إلى مزيج من الفزع والذهول. التفتت ببطء، وعينيها تبحثان عن مصدر الصوت.

اقتربت أكثر لتكتشف قفصاً أصغر خلف قفص النمر، مخفياً في الظلال. داخل القفص كان هناك رجل نحيف، منكسر الجسد، يجلس متكوراً على نفسه، يدفن رأسه بين ركبتيه. ثيابه ممزقة، وشعره الطويل يتدلى على وجهه كشبح منسي.

قالت بصوت حذر ومرتعش:

"من أنت؟"

رفع الرجل رأسه ببطء، وعيناه الحمراوان توهجتا بلون الدم في ضوء الشمس. نظر مباشرة إلى غلانة، وفي تلك اللحظة تغيرت ملامحه.

تردد عليه خليط من الدهشة والفرح الذي أشعل أسارير وجهه المتعب. جلس مستقيماً فجأة، ويداه النحيلتان ممسكتان بقضبان القفص بإحكام، تكلم بصوت مبحوح مليء بالعاطفة:

"أمي!"

رعشة قوية ضربت قلب غلانة، وكأن يداً باردةً لمستها. عيناها اتسعتا في ذهول، وعقلها امتلأ بعشرات التساؤلات:

"من هذا الشاب؟ لماذا ينظر إليّ هكذا، ولماذا ينادني بأمي؟"

تلعثمت وهي تحاول السيطرة على ارتباكها:

"م... من تكون؟"

ابتسم الشاب، ابتسامة متعبة، لكنها مفعمة بالحنين. دموع شفافة تساقطت على خديه المتسخين. خرج منه صوت متألم ومتقطع، لكنه مليء بالفرحة:

"ألم تعرفيني؟ أنا... أنا سالم!"

**** تمت بحمد الله ****

الفصول

أسرار الفجر _____ ١

هموم _____ ٢٠

بين اليقظة والكابوس _____ ٢٤

قلب زهرة ويد عائشة _____ ٢٩

سر بين الرمال والنجوم _____ ٤٣

الرحيل _____ ٥٣

ضيوف _____ ٦٢

هو بدل منها _____ ٧٦

جرح لابد منه _____ ٨٣

الخمسة _____ ١٠١

ليست لك _____ ١١٦

ثوران _____ ١٣٠

آن الأوان _____ ١٣٧

وادان _____ ١٥٨

لن أنسى لن أغفر _____ ١٧٨

الخدعة الكبرى _____ ٢١٤
ميناء العرائش_____ ٢٣٦
الفصول _____ ٢٧٤

الثلاثية قريبا